# كتاب سر الفصاحة

## لابن سنان الخفاجي

### دراسة وتحليل

دكتور عبد الرازق أبو زيد زايد
كلية الآداب - جامعة المنصورة

الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع اسماعيل سري بالمنيرة
ت ٣١٨٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

إلى الذى وهبنى كل شىء . .

إلى الذى أعطى ولم يرد جزاء ولا شكورا . .

إلى روح والدى الطاهرة . .

أهدى هذا الكتاب ؟

عبد الرازق أبو زيد

# مقـــدمة

هذه دراسة لعالم من أعلام البلاغة العربية كان لجهوده الموفقة أثر كبير في تطويرها، والنهوض بها.

وقد شغل كتابه «سر الفصاحة» مكانة ممتازة بين كتب النقد والبلاغة، وهيأت له تلك المكانة عوامل عدة، بعضها راجع إلى طريقة ابن سنان في عرض الموضوعات التي جاءت بين دفتي كتابه، وطريقة معالجته لها، خاصة في فنون البلاغة والفصاحة، وبعضها راجع إلى دقته وذوقه، ورهافة حسه وأحكامه.

وقد حاولت أن أتعرف على حياته بمقدار ما أسعفتني به المراجع، وترجع أهمية دراسة الكتاب إلى قيمته — في تاريخ البلاغة العربية، وأن كثيراً من أفكار ابن سنان أصبحت أصولا ثابتة، خاصـــة في دراسته للفصاحة والأصوات.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن البلاغة العربية في هذه الفترة انقسمت إلى مدرستين: مدرسة المشارقة، ومدرسة المغاربة، فمدرسة المشارقة كان لها اتجاه خاص يهتم بالتحديد والتقسيم، ومدرسة المغاربة وكان لها اتجاه آخر فيه جنوح إلى التذوق الأدبي، ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا أن ابن سنان كان رائدا لمدرسة المشارقة، وقد حذا حذوه قليل: منهم أسامة بن منقذ، وابن شيث القرشي، وضياء الدين بن الأثير وابن الزملكاني وابن أبي الأصبع المصري.

وعلى الرغم من ذلك كان نصيب ابن سنان في دراسات البلاغة والنقد ضئيلا، لهذا جعلت موضوع هذا البحث «دراسة وتحليلا لكتاب سر الفصاحة»، وقسمت الدراسة على هذا الأساس إلى فصول يقوم كل منها بمرحلة تفضي إلى لاحقتها، وجعلت في أول هذه الفصول مدخلا عرضت فيه لابن سنان الخفاجي وحياته، وسيرته، وثقافته.

وكان من الطبيعى أن أتحدث عن الكتب البلاغية قبله للوقوف على إضافاته على سابقيه ، ثم أتحدث عنه بين معاصريه حتى يتضح تأثير كل منهم فى الآخر .

* * *

أما الفصل الأول : فتناولت فيه بالدراسة والتحليل كتاب « سر الفصاحة » مع توضيح آراء ابن سنان فى الأصوات والفصاحة ، وذكر المصادر التى استقى منها .

والفصل الثانى : ويشمل الكلام عن الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما ، ثم فصاحة الكلمة والكلام ، ومدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

أما الفصل الثالث : فهو خاص بالفنون البيانية فى الكتاب ، وطريقة معالجة ابن سنان لها ، وهى التشبيه ، والمجاز والاستعارة ، والكناية .

وفى الفصل الرابع : تناولت الدراسة الحديث عن الفنون البديعية ، والخصائص الأسلوبية ، وفيه قسمت الفنون البديعية إلى تقسيمها الطبيعى :

محسنات لفظية — ومحسنات معنوية ، ثم أفردت بحوثا للايجاز والاطناب ، والتقديم والتأخير .

أما الفصل الأخير : فيتضمن نظرات ابن سنان النقدية فى تضاعيف كتابه ، وهى تشمل الحديث عن الشعر والنثر ، ولغة الشعر ( ألفاظ الشعر ، ولغة المهندسين ، والمتكلمين ). وفواتح القصائد ، وحسن التخلص ، ولزوم ما لا يلزم فى الشعر .

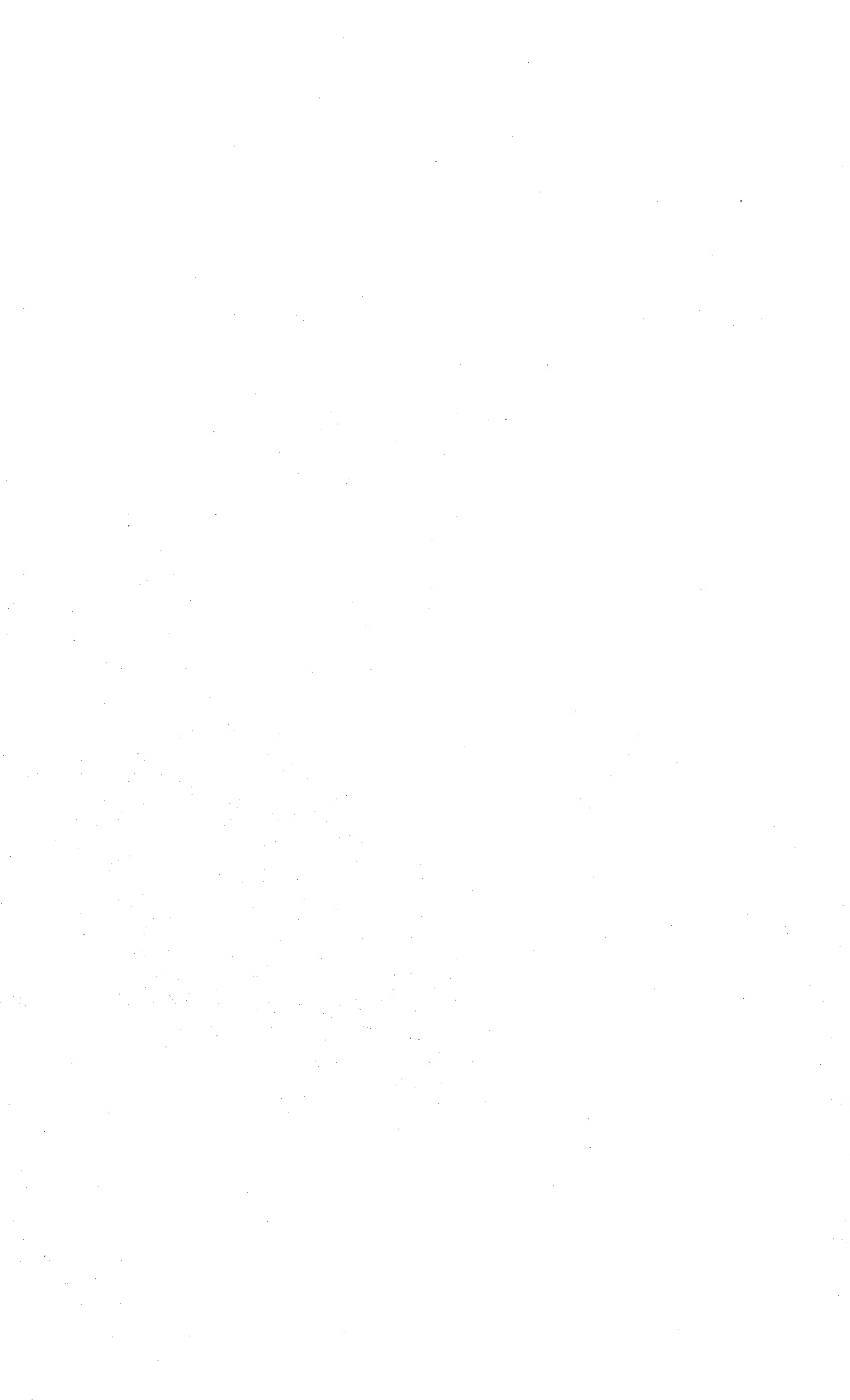
* * *

ويتضح من خلال هذا المنهج ما تهدف إليه الدراسة من الكشف عن جهود

ابن سنان فى البلاغة ، وما تركه لنا من أصول ثابتة فى الأصوات والفصاحة ، وتجلية ماران على حياته من غموض ، وإهمال الدارسين له على الرغم من جهوده .

وبعد ، فلست أزعم أنى بلغت الغاية ، أو أرضيت نفسى كل الرضاء . ولكنى أستطيع أن أقول : إنى بذلت جهد الاستطاعة وأخلصت فيما صنعت ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ، وهو وحده المتصف بالكمال ؟

**المؤلف**



# مدخل

## «حياة ابن سنان وثقافته وآثاره»



هو أبو عبدالله[1] محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى . . الشاعر . . الأديب ولد سنة ٤٢٢ للهجرة ، ونسبه فى بنى خفاجة الذين كانوا ينزلون « بعزاز » من أعمال حلب. وكان أبوه من أشرافها ، ولما شب أخذ العلم والأدب عن علماء عصره ، وفى مقدمتهم أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى ، شاعر المعرة ، وأديبها وفيلسوفها العظيم ، وقد ذكر ذلك ابن سنان صراحة فى أكثر من موضع فى كتابه « سر الفصاحة » ، وممن تتردد أسماؤهم فى هذا الكتاب : الجاحظ وأبو بكر الصولى فى أخبار أبى تمام ، وأبو الحسن الرمانى ، والحسن بن بشر الآمدى فى موازنته ، وأبو سعيد السيرافى ، وأبو الفتح بن جنى ، والقاضى على ابن عبد العزيز الجرجانى .

وفى الكتاب — على نحو ما سنعرض لذلك فى غير هذا الموضع مايدل على أن ابن سنان كان واسع الثقافة ، أما فى الشعر وما يتصل به من نقد فتدل على ذلك النصوص الشعرية الكثيرة التى استشهد بها وما نثره من تعليقات عليها ، وكذلك الشأن فيما يتصل بثقافته النثرية ، وما أشار إليه من بعض نصوص النثر . وأما فى الاعتزال وعلم الكلام وما يتصل بهما من مباحث الفلسفة فتدل على ذلك أيضا نقوله عن بعض الفلاسفة وترداده لأسماء بعض المعتزلة مثل الجبائى ، وجعلته تلمذته لأبى العلاء واسع الاطلاع على كتب اللغة ، وينص من ترجموا له على أنه سمع الحديث النبوى وبرع فيه .

وكان ابن سنان شاعرا بارعا ، وله ديوان صغير مطبوع ببيروت سنة ١٣١٦ للهجرة . وهو أحد الشعراء الذين عنى البارودى بالاختيار من أشعارهم فى مختلف الموضوعات . ويتضح من أشعاره أنه كان يكثر من المديح ، مما جعله يتصل بكثير من شخصيات عصره وموطنه .

---

(١) انظر ترجمة ابن سنان فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٢٣٣/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٩٦/٥ وفى زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٣٦/٢ ، وفى مواضع مختلفة من هذا الجزء والجزء الأول ، وراجع ابن القلانسى ص ٩١ وما بعدها .

ويقول صاحب كتاب فوات الوفيات فى ترجمته انه كان يرى رأى الشيعة ، ويصور هذا الجانب العقدى عنده مثل قوله : [١]

وقالوا قد تغيرت الليالى ... وضيعت المنازل والحقوق
أليس يُرد عن فدك علىٌّ ... ويملك أكثر الدنيا عتيق [٢]

وجماع هذه النزعة الشيعية يرتبط بولاء للدولة الفاطمية الشيعية ، وكان ظلها يمتد أحيانا فيشمل حلب ومسقط رأسه « عزاز » ، وينحسر تارة ثانية على نحو ما انحسر فى سنة ٤٥٢ للهجرة ، إذ استولى على حلب محمود بن نصر ابن صالح بن مرداس ، وكان قد رأى أن يولى على كل قلعة من قلاعه رجلا كفئا يطمئن إليه ، وأشار عليه وزيره أبو نصر بن النحاس أن يولى على عزاز ابن سنان ، فولاه عليها . ونراه حين أحس بمنازلة الدولة الفاطمية له يرسله إلى القسطنطينية مستنجدا بملك الروم ، ومن هناك أرسل ابن سنان بقصيدة إلى ابن ماهم الحاكم المصرى القديم لحلب ، وتمضى الأيام ويظن محمود بن نصر أمير حلب بابن سنان الظنون ، فيستدعيه إلى حلب ، ويتعلل عليه ابن سنان ، فيأمر كاتبه أبا نصر بن النحاس ، وكان صديقا حميما لابن سنان أن يكتب إليه متلطفا ، لعله يستمع له .

ويفكر ابن النحاس فى حيلة يقف منها ابن سنان على حقيقة الأمر ، وأن صاحبه يريد أن يهوى به من حالق ، ويهديه تفكيره إلى أن يشدد النون فى كلمة ( ان شاء الله ) الواردة فى الخطاب ، وما أن قرأه ابن سنان حتى فطن إلى أنه أراد قوله تعالى : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك [٣] » ، فأجابه بخطاب « وكتب إنا الخادم » بكسر الألف فى كلمة « انا » ، وتشديد النون ، وفطن ابن النحاس إلى أنه أراد قولة تعالى : « إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها .... ) [٤]

---

(١) سر الفصاحة ص م .

(٢) هو على بن أبى طالب حين رد عن ارث فدك ، وهى قرية بخيبر أو بناحية الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه (ص) وكان على والعباس يتنازعانها وسلمها عمر اليهما فذكر على أن الرسول ( ص ) كان جعلها فى حياته لفاطمة وولدها (لسان العرب/١٢ : ٣٦١) .

(٣) سورة القصص ( آية ٢٠ ) .

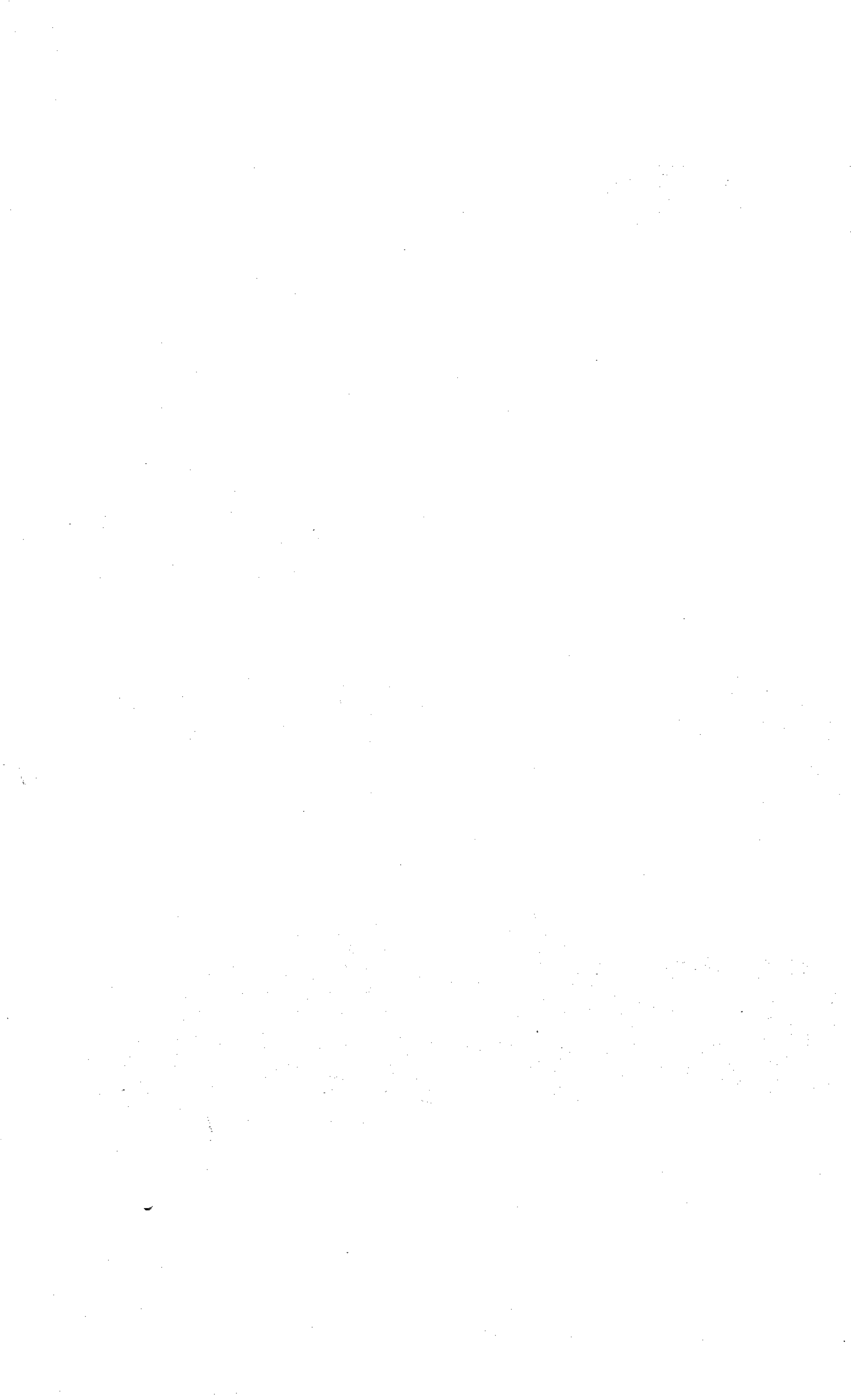
(٤) سورة المائدة ( آية ٢٣ ) .

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس وقال: أنت أشرت على بتولية الخفاجى وما أعرفه إلا منك ، ومتى لم يفرغ بالى منه قتلتك ، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة ، فقال له: مرنى بأمر أمتثله . . قال: تمضى إليه وفى صحبتك ثلاثون فارسا ، فإذا قاربته عرفه بحضورك ، فإنه يلتقيك ، فإذا حضر وسألك النزول عنده والأكل معه فامتنع . وقل له إنى حلفتك أن لا تأكل زاده ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك فى الحضور عندى ، وطاوله فى الحديث حتى يقارب الظهر، ثم ادع أنك جعت، وأخرج هاتين الخشكانجتين[1] ، فكل أنت هذه وأطعمه هذه، فإذا استوفى أكلها عجل الحضور إلىّ فإن منيته فيها . ففعل ما أمره به ، ورجع أبو نصر إلى حلب ، ولم يلبث ابن سنان أن شعر بمغص شديد ورعدة ، وقال: قتلنى والله أخى أبو نصر، وأمر بالركوب خلفه ورده ففات القوم . ووصل إلى حلب ، وكانت وفاة ابن سنان سنة ٤٦٦ للهجرة .

ولم يخلف ابن سنان من الكتب سوى كتاب « سر الفصاحة » وسنعرض له بالتحليل والتفصيل فى الفصول التالية .

---

(١) مفردها ( خشكانجة : اسم طعام — فارسى معرب ) .



# « الكتب البلاغيه قبله »

بلغ العرب فى الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان[1]، وصور الذكر الحكيم ذلك فى غير موضع منه فى مثل « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » .

ولو نظرنا إلى أدبهم الذى خلفوه نجده يحمل فى تضاعيفه مايصور فصاحة منطقهم وكيف كانوا يتأتون للكلام حتى يبلغوا منه كل ما كانوا يريدون من استمالة القلوب والأسماع .

وأحس بذلك الجاحظ من قديم فقال : « لم ترهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد ، وفى صنعة طوال الخطب وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوا ( ذالوا ) الكلام فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقاف ، وأدخل الكير ، وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الأدناس مهذبا »[2] .

وقد لقبوا شعراءهم ألقابا تدل على مدى إحساسهم فى رأيهم مثل المهلهل والمرقش ، والمثقب ، والمتنخل ، والأفوه ، والنابغة ، ومما لاشك فيه أن أسواقهم الكبيرة هى التى عملت على وجود ذوق عام دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده ، وكانوا يسمون القصائد المحبرة بالحوليات والمنقحات ، والمقلدات ، والمحكمات ، وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإسلام بفضل مانهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة .

ثم يأتى عصر بنى أمية وتكثر فيه الخطابة[3] بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية . وتزدهر ازدهاراً عظيما ، والحق أن الملاحظة البيانية كثرت فى هذا العصر ، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ، فقد تحضر العرب ، واستقروا فى المدن والأمصار ورقيت حياتهم العقلية ، وأخذوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقدية ، وظهرت الأحزاب السياسية فكان هناك الخوارج والشيعة

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف — طبعة دار المعارف — ص ٩ .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ٢/١٤ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤ .

والزبيريون والأمويون، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ، وظهرت الأسواق الأدبية كالمربد، والكناسة ، وكان لكل ذلك أصداؤه فى ملاحظات مختلفة عن بلاغة القول وفصاحته .

ونما العقل العربى نموا واسعاً ، فكان طبيعيا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان[1] لا فى مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضاً فى مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطا لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه ، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم ، فوفدوا من كل فج ، وكانوا يجملون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه . فاشتد التنافس بينهم ، وهيأ من بعض الوجوه لاندلاع الهجاء بين فريق منهم ، والمهم أنه هيأ لكى يتخير كل منهم معانيه وألفاظه بحيث تصغى لها القلوب والأسماع ، وتساق إليه الجوائز الضخمة ، وأخذ الشعراء — بحكم استقرارهم فى المدن — يلتقى بعضهم ببعض فى المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفى حضرتهم ، فكثرت المحاورات — بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية — فى براعاتهم وفى بعض معانيهم وأساليبهم.

وفى هذه الآونة استطاع جرير والفرزدق أن يتطورا فى سوق المربد بفن الهجاء القديم ، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة فى حقائق عشيرتى الشاعرين يحا كيهما كثير من الشعراء ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون[2] ثم يأتى العصر العباسى الأول ؛ وليس من شك فى أن كثيراً من الفرس والموالى أتقنوا العربية وحذقوها ، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم ، ومشاعرهم ، وظهروا فى ذلك براعة منقطعة النظير ، وقد نهضوا بالنثر والشعر نهضة واسعة وكثرت حينئذ أنظارهم البلاغية والنقدية ، وأخذت تؤلف فى ذلك كتب مختلفة فى مقدمتها كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ للهجرة .

ولاشك أن كتاب ابن سلام يصور نشاطا نقديا واسعاً ، وقد جمع فيه كل

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦ ، ١٥ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠/ ١٠٢ .

ماعرف قبله من نظرات نقدية متنوعة الاتجاهات كما أنه جمع كل ماعرف عند النقاد والعلماء من مصطلحات نقدية كثر تناولها بينهم .

ويؤلف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة كتابه ( الشعر والشعراء ) متحدثا فيه عن الشعراء ، وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى شعرهم وقبائلهم[١] . وقد ذكر فى مقـــدمته للكتاب أقسام الشعر وطبقاته ، والوجوه التى يختار عليها ويُستحسن لها . وإن كان لم يتسع بتطبيق ذلك فى الكتاب وأثناء حديثه عن الشعراء من جاهليين وإسلاميين وعباسيين .

ونلتقى بعبد الله بن المعتز وهو أول من صنف فى ( البديع ) كتابا جامعاً ، وفيه يذكر أنه ألفه فى سنة أربع وسبعين[٢] ومائتين للهجرة ، وقد مضى منذ السطور الأولى فيه يعلن أنه إنما صنفه ليدل دلالة قاطعة على أن مايكثر منه المحدثون مما يسمى بديعاً موجود من قديم فى القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الجاهليين والإسلاميين يقول : « قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم . وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم ( حا ذاهم ) وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك ، وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف »[٣] . ولا يلبث أن يصرح بغرضه من كتابه قائلا : « وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع »[٤] وفنون البديع التى بنى عليها ابن المعتز الشطر الأكبر من كتابه هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة أو الطباق ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى . وقد

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ( د. مندور — طبعة مطبعة نهضة مصر ) ص ٢٠ .

(٢) كتاب البديع لابن المعتز ( نشر كراتشقوفسكى ) ٥٨ .

(٣) كتاب البديع ص ١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣ .

أكثر من الأمثلة والشواهد . ويكفى ابن المعتز فضلا أنه أول من صنف فى البديع ورسم فنونه ، وكشف عن أجناسها وحدودها بالدلالات البينة ، والشواهد الناطقة، بحيث أصبح إماما لكل من صنفوا فى البديع بعده ونبراسا يهديهم الطريق .

وإذا كان ابن المعتز قد ذكر فنون البـــديع الخمسة الأساسية التى جعلها عماده [1] فإنه تحدث فى أثناء ذلك عما سماه بمحاسن الكلام وقال : « إنها أكثر من أن يحاط بها، وتناول بالبيان ثلاثة عشر محسناً منها : إبتدأها بالكلام عن « الالتفات » والرجوع » وهو أن يقول الشاعر شيئاً ويرجع عنه ،والاعتراض وهو اعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه ، والمحسن الثالث «الخروج من معنى إلى معنى» ، والرابع «تأكيد المدح بما يشبه الذم» ، والخامس «تجاهل العارف» وهوضرب من مزج الشك باليقين ليزيد الكلام تأكيداً ،والسادس «الهزل يراد به الجد» وقد استمده ابن المعتز من الجاحظ ، والسابع «حسن التضمين»وهو استعارة الشاعر الأبيات وأنصافها أو بعض الألفاظ فى حشوها من شعر غيره وإدخالها فى أثناء أبيات قصيدته ، والثامن عند ابن المعتز التمريض والكناية ثم الإفراط فى الصفة ، وسماه قدامة بعده المبالغة ، وفرّع منها الغلو ، ثم حسن التشبيه ، ثم إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ماليس له ، وهو ماسمى بعد ذلك «لزوم مالا يلزم» وأخيراً حسن الابتداءات .

ويخلفه قدامة بن جعفر ( المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة )[2] بكتابه « نقد الشعر » الناظر فى هذا الكتاب يحس فى وضوح أن قدامة تمثل كل ما كتب قبله فى مباحث البلاغة عند الجاحظ وابن المعتز وغيرهما من سابقيه ، وقد استطاع أن يضيف إلى المحسنات الثمانية عشرة التى حدد أسماءها ابن المعتز ثلاثة عشر محسنا جديداً هى: الترصيع والغلو،وصحة التقسيم ،وصحة المقابلات، وصحة التفسير ، والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيـل والمطابقة والتعطف والتوشيح والإيغال .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) انظر فى حياة قدامة ومصنفاته ( معجم الأدباء لياقوت ) — طبعة القاهرة ١٧ / ١٢١ .

ومما لاريب فيه أن قدامة وفق فى هذا الكتاب توفيقاً منقطع النظير ، وهو توفيق جعل من يكتبون فى البلاغة بعده يلهجون باسمه وفى مقدمتهم أبو هلال العسكرى صاحب ( الصناعتين ) ولم يقف الحد بالنقد والبلاغة عند هذا بل كان هناك دراسات نقدية لبعض المتكلمين الذين ظل لهم نشاطهم ، فقد بحثوا مباحث واسعة فى إعجاز القرآن من حيث بيانه وبلاغته على نحو مايتضح فى رسالة « النكت فى إعجاز القرآن » لعلى بن عيسى الرمانى[1] ( المتوفى ٣٨٦ ﻫ ) وهو أحد أعلام المعتزلة فى عصره ، وله مصنفات كثيرة فى التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام .

وقد تحدث فى رسالته عن البلاغة وقال : إنها ثلاث طبقات : عليا ، ووسطى ، ودنيا . فالعليا هى بلاغة القرآن الكريم ، والوسطى والدنيا هى بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم فى البلاغة . وقسم البلاغة عشرة أقسام هى : الإيجاز ، والتشبيه ، الاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان .

ونلاحظ فى هذه الفترة امتزاج كتب النقد بالبلاغة إذ دارت فى جملتها على البحث فى معانى الشعراء وألفاظهم ومهارتهم فى استخدام فنون البديع ، ومن أهم الكتب التى تصور ذلك كتاب ( عيار الشعر ) لابن طباطبا والموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى وكتاب ( الوساطة بين المتنبى وخصومه ) لعلى ابن عبد العزيز الجرجانى .

ولو ألقينا نظرة على كتاب « عيار الشعر » لمحمد بن طباطبا العلوى الأصبهانى[2] المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة لوجدناه يخوض فى صناعة الشعر والميزان الذى تقاس به بلاغته ، ونحس أثناء مطالعته بصلته ( بالبيان والتبيين ) للجاحظ .

ومن أهم مباحثه التشبيه وقد قسمه إلى عدة أقسام ، وفصل القول فيه ، خاصة التشبيه الحسى كما تحدث عن الكناية وضروبها .

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ١٤/٧٣ .

(٢) أنظر ترجمته فى معجم الأدباء ١٨/٥٦ .

ونبه ابن طباطبا إلى فكرة الوحدة العضوية[1] فى القصيدة إذا قال بوجوب ترابط أبياتها حتى تغدو بناء محكما متشا كلا . وبعد ذلك نجدنا أمام كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للآمدى المتوفى سنة ٣٧١ للهجرة . والكتاب موازنة واسعة بين أشعار الشاعرين وما يتصل بها من المعانى والصور البيانية والبلاغية .

ويفصل الآمدى القول فى الاستعارة : القبيح منها والحسن خاصة عند الشاعرين . ويتحدث عن الجناس والطباق ، ويفيض فى مسائل نقدية كثيرة .

ويأتى بعد ذلك كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » لعلى ابن عبد العزيز الجرجانى[2] المتوفى سنة ٣٩٢ هجرية . وقد قدم لبحثه هذا بأغلاط الشعراء . . قدماء . . ومحدثين فى ألفاظهم ومعانيهم ثم مضى يتحدث عن البديع ووجوهه . وصوره . وبدأ بالإستعارة وذكر طائفة من أمثلتها الحسنة والسيئة . ثم انتقل إلى التجنيس وقسمه أقساما منها : جناس الاشتقاق ، والجناس الكامل والجناس المضاف .

ولو نظرنا إلى منهج الجرجانى فى النقد لاستطعنا أن نلخصه فى جملة واحدة هى : أنه رجل يقيس على الأشباه[3] والنظائر . وعلى هذا الأساس بنى معظم وساطته ، فالجرجانى لا يناقش الأخطاء وإنما يعتذر لها ، وهو مدافع يذود عن موكله لا ناقدا يناقش ما أخذ على الشاعر من أخطاء أو عيوب فنية ، ويتسع بالكلام فى السرقات الشعرية . وقد ارتضى المبالغة والغلو إلا أن يخرج بهما الشاعر عن حد المعقول إلى حد الوهم الشديد الذى تصبح فيه المعانى مضادة للحقيقة تضادا يؤذى السامع ، وقد تصبح ضربا من المحال الذى يستكره ولا يقبل . ومن الكتب التى صنفت فى القرن الرابع الهجرى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال الحسن بن عبد الله العسكرى[4] ( المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة ) ويريد العسكرى بالصناعتين الكتابة ، والشعر .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٧ .

(٢) أنظر ترجمته فى معجم الأدباء ١٤/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٣٠٨ .

(٣) النقد المنهجى عند العرب ص ٢٧١ .

(٤) أنظر ترجمته فى معجم الأدباء ٢/٢٥٨ .

وقد افتتح كتابه بمقدمة نوه فيها بعلم البلاغة ، وأنه ضرورى لفهم إعجاز القرآن الكريم ، والتمييز بين جيد الكلام ورديئه ، وأثنى فى هذه المقدمة على كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وجعل العسكرى كتابه فى عشرة أبواب :

أما الباب الأول : فتكلم فيه عن موضوع البلاغة وحدودها وما جاء فيها من أقوال السابقين .

وفى الباب الثانى : تحدث عن تمييز الكلام جيده من رديئه ، ومحموده من مذمومه . وهو فى هذين البابين يستمد من الجاحظ .

وجعل الباب الثالث : خاصاً بمعرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ .

وفى الباب الرابع : تحدث عن حسن النظم وجودة الرصف .

وتناول فى الباب الخامس : الإيجاز والإطناب .

وفى الباب السادس : تحدث عن السرقات الشعريه .

وجعل الباب السابع : للتشبيه .

أما الباب الثامن : فجعله للسجع والإزدواج .

وفى الباب التاسع : تحدث عن فنون البديع وهى عنده خمسة وثلاثون فناً . ويقول إنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون ، وكأنه يلتقى معهم فى تسعة وعشرين فنا .

وقد صرح باسم ابن المعتز[1] وقدامة فى غير موضع وهو يلتقى بأولهما : فى الفنون التالية : الاستعارة ، التطبيق أو الطباق ، التجنيس أو الجناس ، الكناية والتعريض ، رد الأعجاز على الصدور ، الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، تجاهل العارف ، المذهب الكلامى . والتقى بقدامة فى المصطلحات الآتية : المقابلة ، صحة التقسيم ، صحة التفسير ، الإشارة ، الإرداف والتوابع ، الغلو ، المبالغة العكس والتبديل ، الترصيع ، الإيغال ، التوشيح ، التكميل والتتميم .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٢ .

ووراء هذه الألوان ثلاثة عشر لونا أو فنا ، يقول إنه وضع منها ستة هي: التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف . والسبعة المسبوقة هي: المماثلة ، التذييل ، الاستطراد ، جمع المؤتلف والمختلف ، السلب والإيجاب ، الاستثناء ، التعطف .

وقد تحدث في الباب العاشر عن حسن المبادىء والمقاطع وجودة القوافي ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

ومن أهم الكتب التي نلتقي بها في نهاية القرن الرابع الهجري كتاب الشريف الرضي « تلخيص البيان في مجازات القرآن » وله كتاب آخر يسمى « المجازات النبوية » والكتابان عبارة عن بحث تطبيقي تتكرر فيه كلمات الاستعارة والمجاز والكناية دون قصد إلى تحرير الفروق بين أنواع تلك الصور البيانية .

ونلتقي بمحاولة أخرى معاصرة للمحاولة السابقة هي كتاب « إعجاز القرآن » للباقلاني المتوفى [1] سنة ٤٠٣ هجرية . وهو من أعلام المتكلمين الأشاعرة . وقد استهل كتابه بالتعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم مبينا أن الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمس من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية ، وقسم كتابه إلى فصول جعل أولها لبيان أن القرآن معجزة الرسول عليه السلام ، وهي معجزة تقوم على بلاغته مستشهدا في ذلك بآي من الذكر الحكيم .

والفصل الثاني جعله متمما للفصل الأول ، وقد ساق فيه كثيراً من الحجج على إعجاز القرآن ، ورد ردا عنيفا على أولئك الذين عللوا لإعجاز القرآن بالصّرفة ، أو بعبارة أخرى بصرف العرب عن معارضته ، ثم يفتح فصلا لبيان وجوه الإعجاز القرآني في رأيه ورأى الأشاعرة من أصحابه ويردها إلى ثلاثة هي :

---

(١) راجع في ترجمة الباقلاني ابن خلكان ( طبعة سنة ١٢٩٩ هـ ) ٢/٢٧٨ والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٤ وشذرات الذهب ٣/١٦٠ والأنساب للسمعاني ص ٦١ ، ومقدمة كتاب « إعجاز القرآن » للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر — طبع دار المعارف ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤ م .

١ — تضمنه للإخبار عن الغيوب .

٢ — مافيه من القصص الدينى وسير الأنبياء مما روته الكتب السماوية مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميا لايقرأ ولا يكتب .

٣ — بلاغته .

ويجمل هنا نظريته فى إعجاز القرآن البلاغى[1] .

ويعقد بعد ذلك فصلا يتحدث فيه عن وجوه البديع ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآنى بها أولا يمكن ، ويبدأ بالحديث عن الاستعارة مثله فى ذلك مثل ابن المعتز فى كتابه « البديع » وأبى هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » .

ويتلوها بالارداف ثم المماثلة وهو فى المصطلح الأخير يتفق مع أبى هلال العسكرى فى تسميته بينما يختلف مع قدامة إذ كان يسميه التمثيل دالا به على الاستعارة التمثيلية . وبعض صور الكناية ، ويذكر المطابقة ، ويصرح هنا بنقله عن ابن المعتز ، ولايلبث أن يذكر خلاف قدامة له فى هذا اللقب ، إذ أطلقه على صورة من الجناس الكامل .

ويذكر ضربا يسميه « الموازنة »[2] « قول القائل » : « اصبر على حر اللقاء ومضض النزال ، وشدة المصارع » ، وهو ضرب من المزاوجة وتقطيع الكلام دون إحداث سجع فيه . ثم يذكر « المساواة » على أنها ضرب من البديع مقتديا بقدامة فى هذا الصنيع ، وتأثره فى حديثه عقب ذلك عن « الإشارة » والمبالغة » والغلو » « والايغال » والتوشيح » وصحة التقسيم » وصحة التفسير » والتتميم » والترصيع » وذكر من ضروب المصطلح الأخير ضربا سماه قدامة باسم « المضارعة » .

ومضى الباقلانى متأثرا بابن المعتز وقدامة فذكر « التكافؤ » والتعطف » والكناية والتعريض » ثم تحدث عن الالتفات .

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٨

(٢) هى مما زاده قدامة فى كتابه جواهر الألفاظ من حسن البلاغة وقد سماها « اعتدال الوزن » انظر الجواهر (طبعة القاهرة) ص ٣ ومابعدها .

ويعقب بعد ذلك بفصل عنوانه « وصف وجوه من البلاغة » وفيه يلخص الوجوه العشرة للبلاغة التى صورها الرمانى فى رسالته ( النكت فى إعجاز القرآن ) وهنا نحس بأننا إزاء أشعرى يريد أن ينقض ماقاله معتزلى كبير .

وبعد ذلك يلقانا كتاب آخر هو : إعجاز القرآن للقاضى عبد الجبار(١) المتوفى سنة ٤١٥ للهجرة قاضى قضاة الدولة البويهية بإيران، وهو أكبر أعلام المعتزلة فى عصره ، ويهمنا فى كتابه فصلان قصيران عرض عبد الجبار فى أولهما لرأى أبى هاشم الجبائى فى الفصاحة التى بها يفضل بعض الكلام على بعض معقبا عليه . أما الفصل الثانى فقد عرض فيه رأيه الخاص فى الوجه الذى يقع به التفاضل فى فصاحة الكلام . يقول : اعلم أن الفصاحة لاتظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام ثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها . ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات ، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها موقعها . فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها ، فإن قال قائل : فقد قلتم إن فى جملة مايدخل فى الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه ؟ .

قيل له : إن المعانى وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ، ولذلك نجد المعبِّرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق .. على أنا نعلم أن المعانى لايقع فيها تزايد ، فإذن يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها ، فإذا صحت هذه الجملة فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال ( الاختيار ) الذى به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الجبار ( طبقات الشافعية للسبكى ) ٣/ ٢١٩،١١٤ .

الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب فبذلك تقـــع المباينة بين الـكلام [1] .

وهو بتفسيره للفصاحة على هذا النحو يلتقى بالأشعريه فى قولهم بالنظم لا بالمعنى العام للفصاحة الذى فهمه الجبائى . وواضح أنه لا يجعل للفظة صفة أدبية من حيث هى لفظة مفردة ، أو على الأقل لا يجعل لها شأنا فى الفصاحة ، ويلاحظ أنها قد تكون فى موضع أفصح منها فى موضع آخر .

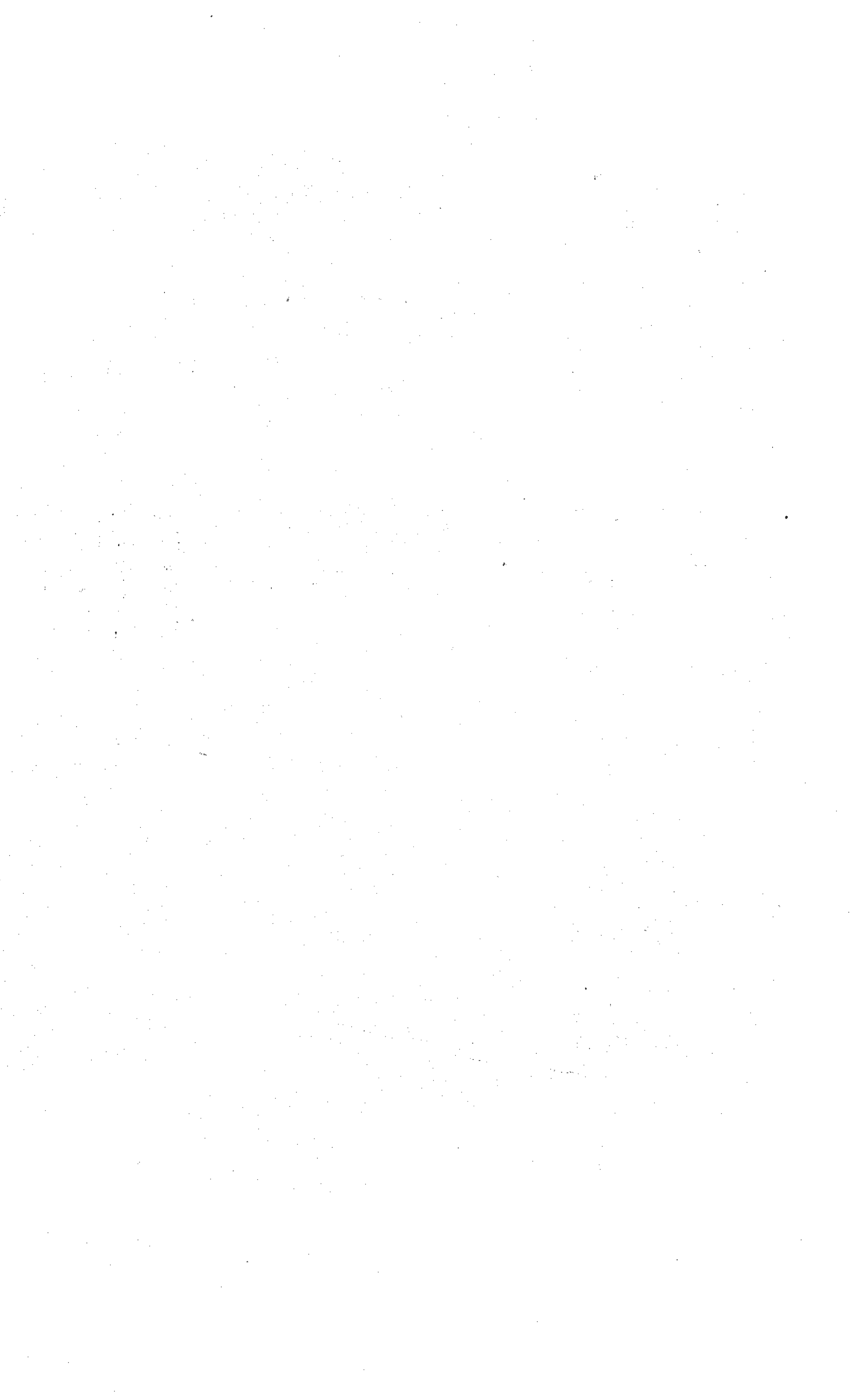
ومما هو جدير بالذكر أن هذه الفـكرة تأثر بها عبد القاهر فى كتابه «دلائل الإعجاز» تأثرا قوياً .

والـكتاب الأخير الذى عاصر صاحبه ابن سنان الخفاجى هو كتاب ( العمدة ) فى صناعة الشعر ونقده لأبى الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة [2]

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) سيأتى الـكلام عنه بالتفصيل بعد ذلك .



# البحوث البلاغية فى عصره

## (ابن رشيق القيروانى وعبد القاهر)



عاصر ابن سنان الخفاجى علمين من أعلام البلاغة هما : ابن رشيق القيروانى وعبد القاهر الجرجانى ، وقد عنى كل منهما بالدراسات البلاغية .

أما ابن رشيق [1] فعاش فى القيروان ، وتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » من خير الكتب فى تاريخ البلاغة ولعل ذلك يرجع إلى دقة جمعه للآراء المتقابلة فى فنونها المختلفة .

وقد وزعه فى نحو مائة باب حاول فيها أن يجمع ما كتب عن صناعة الشعر ومسائله البيانية والبديعية عند المصنفين من قبله ، وهو فى جزءين : وقد تحدث فيه ابن رشيق عن فضل الشعر وأن الاسلام لم يحاربه واسترسل فى الدفاع عن الشعر الذى ألف كتابه لنقده ، ثم تكلم عن القدماء والمحدثين وعن المشاهير من الشعراء ، والمتلقين منهم ، ومن رغب عن ملاحاة غير الأكفاء ، ويعقد بابا لطبقات الشعراء .

وأخذ بعد ذلك فى ذكر حد الشعر وعناصره ، وتحدث عن اللفظ والمعنى والمطبوع ، والمصنوع وعن الوزن والقافية ، والتقفية والتصريع ، والرجز والقصيد ، والقطع والطوال ، وعن آداب الشاعر وعن عمل الشعر وعن المقاطع والمطالع .

وتحدث ابن رشيق عن البلاغة [2] يحاول إدراك سرها والتعرف على حقيقتها ويورد فى هذا الباب أقوالا مأثورة عنها : كأن ينقل عن خلف الأحمر قوله : البلاغة لمحة دالة ، وعن الخليل بن أحمد قوله : البلاغة كلمة تكشف عن البقية وعن بعض البلغاء قولهم : البلاغة قليل يفهم ، وكثير لا يسأم ، إلى غير ذلك من الأقوال .

ويتحدث عن النظم مستهلا كلامه بقول الجاحظ . « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحداً وسبك سبكا واحدا [3] .

---

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٨/ ١١٠ وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٥ .

(٢) العمدة ( الطبعة الأولى — طبعة أمين هندية )١/ ١٦١ .

(٣) المرجع السابق١/ ١٧١ .

وقد استحسن ابن رشيق فى الشعر أن يكون كل بيت فى القصيدة قائما بنفسه، لا يحتاج إلى ما قبله ، ولا إلى ما بعده ، وما عدا ذلك فهو تقصير عنده إلا فى مواضع معروفة مثل الحكايات وما شاكلها [١] ولعله قد خالف ابن سنان فى ذلك.

ويعقد ابن رشيق بابا واسعا للأوزان والقوافى يتحدث فيه عن دوائر البحور وأجزائها وألقابها وما يدخل فيها من زحاف كما يتحدث عن القوافى وألقابها وعيوبها ، وفرق ما بين الرجز والقصيد . ويعرض للبديهة والارتجال وعمل الشعر وشحذ القريحة له . ثم يقف عند المقاطع والمطالع مشيرا إلى ما سماه قدامة باسم ( الترصيع ) كما يقف عند المبدأ وحسن الخروج والنهاية ، ناقلا عن الآمدى والحاتمى وغيرهما من النقاد .

ويفرد بابا للبلاغة يذكر فيه بعض تعريفاتها المبثوثة فى كتاب ( البيان والتبيين ) للجاحظ مضيفا إليها بعض ماقيل فيها بعده . ويفتتح للايجاز بابا ينقل فيه حديث الرمانى عنه وتقسيمه له ، ويتلوه بباب للبيان وآخر للنظم يستمدهما منه ، ويتحدث عن المخترع والبديع فى الشعر وقد جعل الاختراع للمعنى والإبداع للفظ ومايتصل به من دقة التصوير .[٢]

ويأخذ بعد ذلك فى الحديث عن البديع وفنونه بادئاً بالمجاز ويعقد فصلا للاستعارة ينقل فيه عن على بن عبد العزيز الجرجانى ، والرمانى ، والحاتمى ، وابن وكيع المصرى ، ويفرد فصلا « للتمثيل » ثم يتحدث عن التشبيه مستمداً فيه من الرمانى وقدامة وعلى بن عبد العزيز الجرجانى . ويفيض فى باب الإشارة ، ويدخل فيها التعريض والكناية والتعمية وهو فى ذلك أدق من صاحب ( الصناعتين ) الذى أفرد عنها كثيراً من أقسام الكناية بينما كان ينبغى أن يسلكها فيها . على أنه تلاها بما سماه ( التتبيع ) وهو نوع منها .

ومن فنون البديع التى تناولها ابن رشيق « التجنيس » وسمى رد أعجاز الكلام على ماتقدمها عند ابن المعتز باسم « التصدير » ، كما تكلم عن الطباق

---

(١) العمدة ١/١٧٢ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٧ .

والمقابلة والتقسيم وأدخل فيه الترصيع . وسمى « التوشيح » عند قدامة وأبى هلال العسكرى باسم « التسهيم » .

وتحدث عن الالتفات والمبالغة والغلو والإيغال والحشو واستدعاء القوافى وجعل من فنون البديع « التكرار » متابعا فى ذلك لأبى أحمد العسكرى .

ثم تحدث بعد ذلك عن « التضمين» مستمداً من ابن المعتز، «والاتساع» وهو أن يكون فى البيت من الامتداد فى معناه ما يجعله يؤول تأويلات مختلفة .

ونادى بفكرة تماسك القصيدة متابعاً فى ذاك ابن طباطبا العلوى يقول : « فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله[1] .

ولاشك أنها فكرة دقيقة بدأ بتصويرها ابن طباطبا على نحو ماأسلفنا وزادها الحاتمى تصويرا وبيانا إذ طلب فى القصيدة أن تتماسك أبياتها تماسك الأعضاء فى الجسد الواحد بل تتسق وتنتظم وتأتلف بحيث تتلاحم أجزاؤها تلاحما دقيقاً .

ومن هذا العرض يتضح لنا المباحث البلاغيـــة التى تناولها ابن رشيق فى كتابه .

وهناك عالم آخر عاصر ابن سنان هو عبد القاهر[2] الجرجانى — وعبد القاهر وإن لم يكن لدينا معلومات واضحة عن حياته إلا أننا نعرف أنه ولد بجرجان . وهى إحدى المدن المشهورة بين طبرستان وخراسان، وكان فقيها شافعيا ، ومتكلما على مذهب الأشاعرة . ويقال أن شهرته دوت فى الآفاق بكتاباته البلاغية ، وقد توفى سنة ٤٧١ للهجرة .

---

(١) العمدة ٢/٩٤ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥١ وعيار الشعر ص ٢٦ .

(٢) انظر فى حياة عبد القاهر طبقات الشافعية للسبكى ٣/٢٤٢ ودمية القصر للباخرزى ص ١٠٨ .

وقد استطاع أن يضع نظريتى علم البيان والمعانى وضعا دقيقاً ، أما نظر
المعانى فقد خص بها كتابه « دلائل الإعجاز » .

وأما نظرية البيان فخص بعرضها وتفصيلها كتابه « أسرار البلاغة » . وق
سمى فى الدلائل علم المعانى باسم ( النظم ) وهو اصطلاح كان يشيع فى بي
الأشاعرة فكانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه ، وأول من وضع هذا الاصطلا
أبو عثمان الجاحظ ، وقد علل به الإعجاز القرآنى ويبدو أن الأشاعرة تمسكو
به بينما مضى المعتزلة منذ أبى هاشم الجبائى يضعون مكانه اصطلاح ( الفصاحة
وردوها إلى حسن اللفظ وحسن المعانى ، ونرى عبد القاهر فى مواطن كثير
من كتابه « الدلائل » يبدئ ويعيد فى إبطال أن يكون مرد الفصاحة إلى اللف
أو المعنى كما زعم الجبائى المعتزلى ، وإن كان لم يصرح باسمه ، إنما مردها إ
النظم كما قال الباقلانى الأشعرى ، أو بعبارة أخرى إلى الأسلوب وخصائص
وكيفياته ، وهو يلقانا بصحف نقاشه ودفاعه منذ فواتح كتابه إلى خواتيمه
فقد استهله بفصل[١] : عقده لتحقيق القول فى البلاغة والفصاحة والبيا
والبراعة ، ذهب فيه إلى أن هذه الأوصاف لاترجع إلى اللفظ . وإنما ترج
إلى النظم وكيفيات الصياغة وصورها وخصائصها .

ومن ثم فقد ذهب إلى أن اللفظة المفردة من حيث هى لفظه لاوزن لها
فصاحة أو بيان أو بلاغة ، يقول : « وهل تجد أحداً يقول هذه الكلم
فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها
وفضل مؤانستها لأخواتها »[٢] . ويبسط الكلام فى ذلك منتهيا إلى قوله : ( وق
اتضح إذن اتضاحا لايدع للشك مجالا أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفا
مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلاف
فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ماأشبه ذلك مما لاتعلق له بصري
اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك ، وتؤنسك فى موضع ثم ترا
بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر[٣] .

---

(١) دلائل الاعجاز (تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى — نشر مكتبة القاهرة ١٩٦٩
ص ٨٧ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٠ .

ويتوسع عبدالقاهر فى الحديث عن فكرة ( النظم ) وينكر أن يكون للمعانى مزية فى البلاغة . كما أنكر ذلك بالقياس إلى الألفاظ من حيث هى ألفاظ فى مستهل كتابه. وإنما المعول هو النظم والأسلوب والصياغة ويتابع فى ذلك ماقاله الجاحظ : من « أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج . وصحة الطبع . وكثرة الماء . وجودة السبك . وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير » [1] .

إذن ففصاحة الألفاظ وبلاغتها لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التى توصف بها وإنما ترجع إلى صورتها ، ومعرضها الذى تتجلى فيه ، وبعبارة أخرى ترجع إلى نظمها ومايطوى فيه من خصائص. ومعنى ذلك أن هذه الصفات ليست صفات للألفاظ فى أنفسها ، وإنما هى صفات عارضة لها فى التأليف والصياغة بسبب دقائق بلاغية لم تكن لتاقبل سياقها الذى أخذته فى صور نظمها [2] .

وقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل هى مجموعة من العلاقات [3] التى نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية ، وتلك العلاقات والروابط هى المعانى المختلفة التى نعبر عنها ، ومن ثم كانت أهميتها ومالها من صدارة على الألفاظ .

هذا هو عبد القاهر الجرجانى الذى عاصر ابن سنان الخفاجى ، وكلاهما عاش فى القرن الخامس الهجرى إلا أنهما يختلفان فى الموطن وقد سبق أن ذكرنا أن الجرجانى عاش فى ( جرجان ) أما الخفاجى فكان فى ( حلب ) .

وإذا كان عبد القاهر لم يعتن بالألفاظ المفردة ولم ير البلاغة راجعة إليها بوجه من الوجوه، ولم ير الألفاظ تتفاوت إلا فى ناحيتين: كثرة الاستعمال وقلته،

---

(١) الحيوان طبعة الحلبى ١٣١/٣ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص١٦٤
(٣) النقد المنهجى عند العرب ص٣٢٦

وسهولة الجرى على اللسان وصعوبته ،فابن سنان كتب صحفا كثيرة من كتابه فى الحديث عن اللفظ المفرد وبدأ هذا بالحديث عن الأصوات والحروف ومخارجها وعن اللغة أهى مواضعة أم توقيف ثم تحدث فى تفصيل عن الحروف ، وبعد أن تحدث عن الفصاحة والبلاغة ذكر شروط الفصاحة فى اللفظ المفرد ، ثم عرض لفصاحة المركب بشروط هذه الفصاحة .

ذكر ابن سنان الجناس والطباق ، ولكن من زاوية غير التى نظر إليها عبد القاهر .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن مباحث ابن رشيق تختلف فى مضمونها عن مباحث عبد القاهر ، ورأينا أن مباحثهما تختلف فى وضوح عن مباحث ابن سنان مما يؤكد أن أحداً منهم لم يطلع على عمل صاحبه وأن كلا منهم اتجه بعمله اتجاها خاصا به[1]

ومما لاشك فيه أن لكل كتاب من الكتب الثلاثة أهميته فى تاريخ البلاغة والنقد العربيين ولا تستغنى المكتبة العربية عن أى منها ، ففى رأيى أن كل كتاب من هذه الكتب مكمل للآخر فكتاب ابن رشيق ( العمدة ) تكلم عن صناعة الشعر ونقده ، وترجع قيمته إلى دقة جمعه للآراء المتقابلة فى البلاغة والنقد ، ثم كتاب عبد القاهر وهو أكثر الثلاثة تأثيراً فى البلاغة العربية من بعده . فهو أول من وضع علم المعانى ، وقسم علوم البلاغة إلى المعانى ، والبيان ، والبديع . وقد نظم علم البيان إلى أمثلته التى تداولتها كتب البلاغة من بعده .

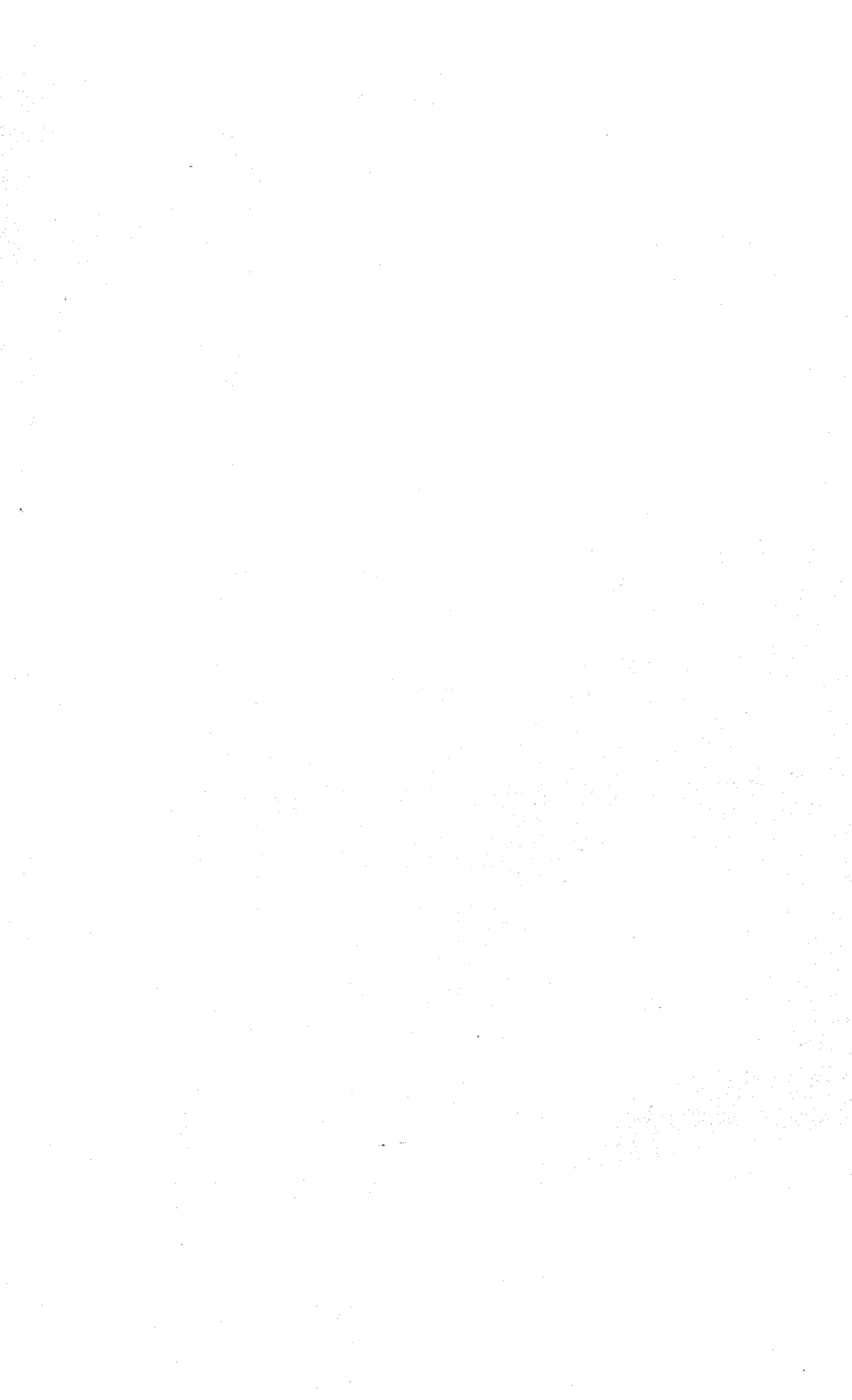
أما ابن سنان فلا ننسى فضله فى أنه أول من فرق تفريقاً واضحاً بين الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز ، وتكلم عن الأصوات والحروف ، وترك أفكاراً ظلت أصولا ثابتة إلى اليوم الحاضر .

---

(١) أنظر أسرار البلاغة ( عبد القاهرة الجرجانى — شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى — نشر مكتبة القاهرة — الطبعة الأولى — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ) ١ / ٦٨ .

# الفصل الأول

## تحليل كتاب سر الفصاحة



# إسم الكتاب

اختار ابن سنان لكتابة اسم « سر الفصاحة » وقد أتت الفصاحة مرادفة البيان والبلاغة فى مواضع كثيرة من كتابات سابقيه على شاكلة قول الجاحظ فى تهجين ما رواه بعض الشعوبيين من أشعار سقيمة .[1] « إن كانوا قد رووا هذا الكلام ، لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والخطابة » كما عطفت على البيان فى قوله : فلو أننا لم نعرف لمحمد صلى الله عليه وسلم فضيلة فى نبوة ولا مزية فى البيان والفصاحة لكنا لا نجد بدا من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء » . وعطف الافصاح على البيان عطف تفسير فى قوله: « ومدح الله القرآن بالبيان والافصاح وحسن التفسير والايضاح ، وبجودة الافهام وحكمة الابلاغ » .

ودائما تلقانا كلمة الفصاحة مرادفة لكلمة البلاغة عند أصحاب البيان العربى حتى إذا كان ابن سنان وجدناه يحاول التفريق بينهما فيجعل الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ بشروط عدة تنقسم إلى قسمين : الأول يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها ، والثانى يوجد فى الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض ، ولما فرغ من الكلام على القسمين ذكر أن من وقف عليهما عرف حقيقة الفصاحة . وعلم أسرارها وعللها ، وبعد ذلك تكلم عن المعانى بانفرادها .

ونراه يصرح فى مقدمة كتابه بأن الغرض منه هو معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها ، وقد شغل نفسه بالكلام عن الفصاحة طيلة الكتاب ، ومن هنا هداه تفكيره إلى تسميته بهذا الاسم « سر الفصاحة » .

وفى رأينا أن ابن سنان لم يشفع كتابه فى تسميته له بالبلاغة بحيث يكون اسمه مثلا سر الفصاحة والبلاغة ملاحظا ما شاع فى بيئة المعتزلة منذ القرن الرابع الهجرى من تعليل إعجاز القرآن بفصاحته .

فنرى القاضى أبا الحسن عبد الجبار الأسدابادى (المتوفى ٤١٥ هـ) يستهل الفصل

---

(١) البلاغة العربية فى دور نشأتها ( الدكتور نوفل — ط . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ ) ص ١٢٨ وما بعدها .

الأول من كتابه على هذا النحو . قال شيخنا أبو هاشم الجبائى : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولا بد من اعتبار الأمرين لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين . وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظام واحدا ، وتقع المزية فى الفصاحة ، فالمعتبر ماذكرنا ، لأنه الذى يتبين فى كل نظم وكل طريقة وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء : يسبق إليه ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه فى ذلك النظم ، ومن يفضل عليه يفضله فى ذلك النظم »[1] .

« وكلام أبى هاشم صريح فى أن النظم لا يصلح أن يمكون مفسراً لفصاحة الكلام لأن النظم قد يكون واحداً . ويفضل أديب صاحبه فيه ، وكأنه يرد بذلك على الجاحظ وأمثاله الذين يرجعون إعجاز القرآن إلى نظامه وطريقته ».[2]

ويقول إنه لا يوجد فى الكلام إلا اللفظ والمعنى ولا ثالث لهما « وإذن فلا بد أن تكون الفصاحة راجعة إليهما بحيث يكون اللفظ جزلا والمعنى حسناً » .

ويزيد عبد الجبار فكرة أستاذه وضوحاً فيقول إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره ، فصارت الطرق التى عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة ، كما أن قدر الفصاحة معتاد ، فلا بد من مزية فيهما ، ولذلك

---

(١) انظر « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » الجزء السادس عشر : إعجاز القرآن ، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ص ١٩٧ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ — ١١٦ .

لا يصح عندنا ( يريد المعتزلة فى عصره ) ان يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة التى هى جزالة اللفظ وحسن المعنى. ومتى قال القائل : إنى وإن اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية فى الفصاحة فقد عاد إلى ما أردناه » .[1]

ومن ذلك يتضح لنا أن عبد الجبار وأستاذه الجبائى قد عللا إعجاز القرآن بفصاحته ، فمرجع الاعجاز القرآنى إلى الفصاحة .

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل — الجزء السادس عشر : إعجاز القرآن ص ١٩٩ وما بعدها .



# مـــواده

ذكر ابن سنان الخفاجي في مقدمة (سر الفصاحة) أن الغرض من تأليفه معرفة حقيقة الفصاحة . . . يقول : «أما بعد : فإني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها ، أودعتُ كتابي هذا طرفا من شأنها ، وجملة من بيانها وقربت ذلك على الناظر . وأوضحته للتأمل ، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ، ولا مع الإسهاب إلى الأملال ، ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق[1] .

وواضح من حديث ابن سنان أنه هنا متأثر بفكرة أبي هاشم الجبائي التي ترد إعجاز القرآن الكريم إلى الفصاحة ، وهي ترد بدورها إلى حسن اللفظ وحسن المعنى .

ويمضي ابن سنان فيعقد فصلا عن الأصوات ، يبـــدؤه بتعريف الصوت قائلا : «إنه مصدر صات الشيء يصوت صوتا فهو صائت ، وصوَّت تصويتا فهو مصوت ، وهو عام ولا يختص ..... يقال ، صوت الإنسان ، وصوت الحمار واستشهد في ذلك بقوله تعالى : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)[2] .

ونراه يفيد أولا من كلام النحويين عن الصوت والأصوات قائلا : إن الصوت مذكر لأنه مصدر كالضرب ، والقتل ، إلا أنه ذكر بعض الحالات ورد الصوت فيها مؤنثا على التأويل كما في قـــول رويشد بن كثير الطائي :

يا أيها الراكب المزجي مطيته بلغ بني أسد ما هذه الصوت

والمراد بالصوت هنا الاستغاثة ، وحين ينتهي من الحديث عن الصوت من الوجهة اللغوية يتحدث عنه من الوجهة الكلامية مفيداً من مباحث الكلاميين وما ذهبوا اليه من أن الصوت عرض . . يقول : « والصوت معقول لأنه

---

(١) سر الفصاحة ( لابن سنان الخفاجي — تحقيق عبد المتعال الصعيدي — ط . أولاد صبيح سنة ١٩٥٣ ) ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥ — ٦ .

يدرك ، ولا خلاف بين العقلاء فى وجود مايدرك ، وهو عرض ليس بجسم ، ولا صفة لجسم ، واستدل على ذلك بإدراكه بحاسة السمع »[١].

ويعرض لمذاهب المتكلمين فى تماثل الأجسام ، وفى الأعراض ، وينتهى كلامه فى الفصل بقوله : « والصوت يخرج مستطيلا ساذجاً حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتـــداده ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا »[٢] .

والفصل الثانى من الكتاب « فى الحروف » وهو يبدؤه بمباحث اللغويين والنحاة فى الحرف ، ويحاول أن يفسر كلمة « الحرف » فى كلام العرب ، يقول إنه : « يراد به حد الشىء وحدته ، ومن ذلك حرف السيف إنما هو حده وناحيته » ويقول : « إن الحروف سميت حروفاً لأنها حد منقطع الصوت . وذكر أن الحروف العربية تسعة وعشرون حرفا ورتبها بحسب المخارج كما يلى : الهمزة - الألف - الهاء - العين - الحاء - الغين - الخاء - القاف - الكاف - الضاد - الجيم - الشين - الياء - اللام - الراء - النون - الطاء - الدال - التاء - الصاد - الزاى - السين - الظاء - الذال - الثاء - الفاء - الباء - الميم - الواو .[٣]

والمعروف أن الخليل بن أحمد أول من صنف معجما عربيا هو كتاب «العين» وقد رتبه على مخارج الحروف ، ويظهر أنه تأثر فى ذلك بنحاة السنسكريتية وترتيبها عنده على النحو التالى: « العين - الحاء - الهاء - الخاء - الغين - القاف - الكاف - الجيم - الشين - الضاد - الصاد - السين - الزاى - الطاء - الدال - التاء - الظاء - الذال - الثاء - الراء - اللام - النون - الفاء - الباء - الميم - الياء - الواو - الألف » .[٤]

ويلاحظ أن هذا الترتيب المنسوب عند ابن منظور للخليل يختلف مع الترتيب

---

(١) سر الفصاحة ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩ .

(٤) مقدمة لسان العرب ص ١ — ٧ .

الذى نسبه إليه ابن النديم فى فهرسه وهو عنده يجرى على هذا النظام : ...
وحروفه على مايخرج من الحلق والهوات فأولها : العين - الحاء - الهاء - الخاء
- الغين - القاف - الكاف - الجيم - الشين - الصاد - الضاد - السين - الراء
- الطاء - الدال - التاء - الظاء - الذال - الثاء - الزاى - اللام - النون - الفاء
الميم - الواو - الألف - الياء .

والفرق واضح بين ترتيب ابن سنان الخفاجى للحروف وترتيب الخليل
ابن أحمد .

والمعروف أن الدراسات الصوتية نشأت ضئيله عند الخليل وسيبويه ومن
تبعهما ، متأثرة بما كان للهنود[1] من ملاحظات فى الأصوات ، وتتابع على هذه
الدراسات مؤلفو العرب من بصريين وكوفيين ونحويين وقراء للقرآن حتى
تكاملت على يد ابن جنى فى كتبه المختلفة وخاصة « سر صناعة الإعراب » .

وقد تأثر ابن سنان بكلامه وأنظاره المختلفة ومزج بها كلام الفلاسفة فى
الأصوات ، وبنى عليه مبحثه الصوتى فى كتابه .

ويقسم ابن سنان الحروف إلى[2] :

١ — مجهورة .

٢ — مهموسة .

٣ — رخوة .

٤ — شديدة .

٥ — مابين الرخوة والشديدة .

---

(١) للمستعرق برجستراسر « التطور النحوى للغة العربية » ص ٥ .
(٢) سر الفصاحة ص ٢٣ .

ويعرض للحروف المنطبقة والمنفتحة ، وحروف الاستعلاء والانخفاض ، وحروف الذلاقة ، وهى الحروف التى يعتمد عليها بذلق اللسان وهو طرفه ، وذكر انقسام الحروف إلى الصحة والاعتلال والزيادة ، والأصل ، والسكون والحركة ، ولم يتوسع فى هذه التقسيمات وما يماثلها خشية الإطالة يقول : « وإنما أردنا ذكر مالا يستغنى عنه طالب معرفة الفصاحة التى لها يقصد ، وإليها ينحو . فأما ما سوى ذلك فاللمحة تقنع منه ، واللمعة تغنى فيه ، وفيما أوردناه من أقسام الحروف وأحكامها فى هذا الفصل مقنع[1] » .

ومما لاشك فيه أن ابن سنان أفاد هنا من دراسات علم التجويد ، فأصحاب الأداء القرآنى ( التجويد ) قد نظموا لهم دراسات ، وقواعد اشتقوها من دراسات الخليل وتلاميذه ، ومن دراسات الكوفيين ، وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة مطولة ومختصرة توضح للناس كيف يؤدون تلاوة القرآن أداء صحيحا وقد سموا دراساتهم اسم علم التجويد .

وبعد أن قسم الحروف إلى مجهورة ومهموسة ـ ذكر أن معنى الجهر فى الحرف هو إشباع الاعتماد فى موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت ، ومعنى الهمس فيه أن يضعف الاعتماد فى الصوت حتى يجرى معه النفس . وقال : إن الحروف المهموسة عشرة هى : الهاء ـ الحاء الخاء ـ الكاف ـ السين ـ الصاد ـ التاء ـ الشين ـ الثاء ـ الفاء ـ وما سوى هذه الحروف مجهور .

وتكلم عن الرخوة والشديدة . والتى بين الشديدة والرخوة ، فالشديدة : هى التى يمنع الصوت أن يجرى فيها وهى ثمانية أحرف . الهمزة ـ القاف ـ الكاف ـ الجيم ـ الطاء ـ الدال ـ التاء ـ الباء .

ومن الحروف أيضاً المنطبقة والمنفتحة ، ومعنى الإطباق أن يرفع المتلفظ

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٥

بهذه الحروف لسانه وينطبق بها الحنك الأعلى فينحصر الصوت بين اللسان والحنك وهى أربعة: الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء ، وما سواها من الحروف منفتحة غير منطبق.

وتحدث عن حروف الاستعلاء والانخفاض ؛ والاستعلاء أن تصعد الحنك الأعلى وهى سبعة : الخاء ـ الغين ـ القاف ـ الضاد ـ الظاء ـ الصاد ـ الطاء ، وما سوى ذلك من الحروف فهو منخفض .

وتكلم عن حروف الذلاقة وهى التى يعتمد فى نطقها على ذلق اللسان وهو طرفه وهى ستة : اللام ـ الراء ـ النون ـ الفاء ـ الباء ـ الميم ، وما سواها فهى المصمتة ، وختم كلامه فى هذا الفصل بالحديث عن الحروف فى أحوال الصحة والاعتلال ، والزيادة والأصل ، والسكون والحركة .

وابن سنان فى كل ذلك متأثر بالنحاة خاصة من يردد ذكرهم أمثال سيبويه وأبى عبيده وثعلب وابن دريد ، والأخفش، وابن جنى ، وكذلك تأثر ابن سنان بالدراسات الصوتية عند إخوان الصفا فى رسائلهم .

ولو نظرنا إلى الدراسات الصوتية الحديثة[1] فى ترتيبها للحروف حسب مخارجها وجدنا أن ابن سنان لا يكاد يختلف معها فى الترتيب إلا فى حروف قليلة ، وهو اختلاف بسيط إذا نظرنا إلى ابن سنان من واقع عصرنا هذا .

وينتقل ابن سنان إلى فصل ، فى الكلام ، ويبدأ هذا الفصل بقول السيرافى أن الكلام مصدر ، والواقع أن الكلام ليس مصدرا ، وإنما هو اسم للمصدر ، فالمصدر هو التكليم » ويقول: الكلام ما انتظم من الحروف المذكورة وحده ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة ، إذا وقع ممن تصح عنه

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ( د. تمام حسان — مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٥ ) ص ٥٩ وما بعدها .

أو من قبيله الإفادة . ونلاحظ أنه اشترط الانتظام لأنه لوأتى المتكلم بحرف ومضى زمان ثم أتى بحرف آخر لايصح أن نقول أن هذا كلام ، واشترط أن تكون الحروف المكونة للكلام حروفا معقولة ؛ لأن أصوات بعض الجمادات ربما تقطعت على وجه يلتبس بالحروف .

ويذكر ابن سنان أنه يوافق العرب جميعاً على أن الكلام المفيد وغير المفيد يسمى كلاما مخالفا بذلك النحاة .

ويستدل على أن الكلام هو الصوت الواقع على بعض الوجوه مخالفا بذلك أبا على الجبائى الذى ذهب إلى أن جنس الكلام يخالف جنس الصوت ويقول إنه لوصح ماذهب إليه الجبائى ، وهو أن الكلام غير الصوت لجاز أن يوجد أحدهما مع عدم وجود الآخر ، ولما استحال أن توجد الأصوات المقطعة على وجه مخصوص ، ولا تكون كلاما ، أو الكلام من غير صوت مقطع دل على أنه الصوت بعينه .

وبعد نقاش جدلى فلسفى عن الكلام والصوت ينتهى ابن سنان إلى تقسيم الكلام إلى : [1]

مهمل ، مستعمل ، ويقسم المستعمل قسمين :

الأول : الألقاب ( كزيد ، وعمرو ) .

والثانى : المفيد وجعله على ثلاثة أضرب :

أحدها : أن يبين نوعا من نوع كقولنا : كون ، ولون .

وثانيها : أن يبين جنسا من جنس كقولنا : جوهر ، وسواد

وثالثها : أن يبين عينا من عين كقولنا : عالم ، وقادر .

---

(١) سر الفصاحة ص ٤٠

ويقسم الكلام المفيد قسمين: حقيقة ومجاز ، فاللفظ الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد به ما وضع لإفادته ، والمجاز هو اللفظ الذى أريد به ما لم يوضع لإفادته . . ولعل هذه أول مرة وضع فيها تعريف واضح للحقيقة والمجاز .

وبعد أن أطال فى شرح الكلام وتقسيماته تحدث عن المتكلم فقال : « إن المتكلم من وقع الكلام الذى هو كلام بحسب أحواله من قصده وإرادته ، واعتقاده . وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرا » .

وينهى ابن سنان هذا الفصل بكلامه عن الحكاية والمحكى .

ويعقد فصلا فى « اللغة » يبدؤه بتعريفها وبأنها ما تواضع عليه القوم من الكلام ، ويؤكد هنا أن اللغة مواضعة لا توقيف ، ويحاول تفسير كلمة لغة ويقول : أنها مشتقة من كلمة لغيت بالشيء إذا أولعت به ، وأغريت به ، وقيل بل هى مشتقة من اللغو ، وهو النطق ، ومنه قولهم : سمعت لواغى القوم : أى أصواتهم ، ولغوت أى تكلمت ، ويذكر أن أصل اللغات مواضعة لا توقيف .

وبعد ذلك يسرد ابن سنان مميزات اللغة العربية بالقياس إلى غيرها من اللغات قائلا : أنها تمتاز على غيرها بالسعة إلى جانب أنها أخصر اللغات فى إيصال المعانى ، وفى النقل إليها يبين ذلك وأنها تكثر بالاستعارات . والألفاظ الحسنة الموضوعة مما لا يوجد نظيره فى اللغات الأخرى وأربابها أو أصحابها هم العرب الذين لا أمة من الأمم تنازعهم فضائلهم ، ولا تبلغهم فى مناقبهم ومحاسنهم .

ويفرد فصلا عن العرب يأسبابه وجه تفضيل هؤلاء القوم على غيرهم ، ويتحدث عن خصائصهم الحميدة ، وفى مقدمتها الكرم ، والبأس ، والنجدة ، والحمية ، ويصفهم بأنهم أصحاب السرى والتأويب[١] ، وإليهم يعزى جوب القفار ، وقطع المهامه ، والحروب عادتهم والغارة صناعتهم إلى جانب ما وهبهم الله من العقول الصحيحة ، والأذهان الصافية ، وما تميزوا به من الحكم والأمثال .

---

(١) السرى : السير ليلا ، والتأويب : من آب يؤوب إذا رجع من رحلته .

ويستمر ابن سنان فى ذكر صفات العرب من غيرة ، وصبر وجلد ، وأنفة إلى جانب مراعاتهم للأنساب ، وحفظها وذكر الأصول والبحث عنها . فكل ذلك تفرد به العرب ، ولم يشاركهم فيه مشارك ، ولا ماثلهم فيه مماثل .

وذكر نزول القرآن بينهم على سيد الخلق « محمد عليه الصلاة والسلام » ، وعاد فتحدث عن اللغة العربية مرة أخرى وذكر ما اختصت به دون غيرها من اللغات ببعض الحروف مثل « الظاء » ، « الضاد » .

وينتقل ابن سنان من ذلك إلى فصل قصره على « الفصاحة » وقد بدأه بتعريف الفصاحة بأنها الظهور والبيان ، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته ، وفصح فهو فصيح ويستشهد بقول الشاعر :

« وتحت الرغوة اللبن الفصيح »

ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه ، وأفصح كل شىء إذا وضح ، ويفرق بين الفصاحة والبلاغة [١] « فيقول أن الفصاحة مقصورة على الألفاظ بينما البلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، فلا يقال فى كلمة واحدة بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا ، وبعد أن يفرق بين الفصاحة والبلاغة يبدأ الكلام عن فصاحة الكلمة ويضع لها شروطا عدة متى وجدت وتكاملت فى الكلمة كانت فصيحة ، ونحن نذكرها بجملة :

أولا : أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج واستشهد فى ذلك بالألوان فكلما كانت الألوان متباينة كانت فى النظر أحسن ، وكذلك الحروف [١] .

ثانيا : أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسنا ومزية على غيرها وقد استشهد بقول أبى الطيب : [٢]

مبارك الاسم أغر اللقب ⁂ كريم الجرشى شريف النسب

---

(١) سر الفصاحة ، ص ٦٠ .

(٢) انظر موسيقى الشعر ( د . إبراهيم أنيس ) ص ٢١ .

(٣) سر الفصاحة ، ص ٦٧ .

فكلمة الجرشى ، ثقيلة تنفر منها الآذان ، وتنبو عنها الأسماع .

ثالثا : أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية ويستشهد برأى أبى عثمان الجاحظ . وأن تكون غير ساقطة عامية . وأن تكون جارية على العرف العربى الصحيح فى التصريف والاستعمال . وأن لا يكون معناها القديم قد هجر وأصبحت تدل على شىء كريه ، كما يجب ألا تكون كثيرة الحروف ، وإلا خرجت عن الفصاحة ، ويستشهد على ذلك بقول أبى نصر بن نباته .

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم .:. ألا إن مغناطيسهن الذوائب

فكلمة ( مغناطيسهن ) كثيرة الحروف ، وهذا وجه قبحها . إذ تخرج بذلك عن المعتاد فى الألفاظ إلى الشاذ النادر .

وكان ابن سنان قد مثل لذلك بقول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلت .:. من جانبيك مقاعد العواد

وقال إن إيراد هذه اللفظة ( مقاعد ) صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلا ، فأما الإضافة إلى ما ذكره ففيها قبح لاخفاء فيه .

ويستمر ابن سنان فى ذكر الشروط الواجب توافرها فى اللفظة فيقول : يجب أن لاتصغر الكلمة تصغير تعظيم على نحو مايصنع المتنبى فى كثير من الألفاظ .

وفصل ابن سنان القول فى فصاحة الكلمة ، واستشهد بأمثلة كثيرة ، منتهيا إلى القول بأن هذه الشروط : « هى جملة مايحتاج إلى معرفته فى اللفظة المفردة بغير تأليف . فتأملها وقس عليها مايرد عليك من الألفاظ ، فانك تعلم الفصيح منها من غيره إن شاء الله تعالى »[1] .

---

(١) سر الفصاحة ، ص ١٠٦

ولخص البلاغيون المتأخرون ماقاله ابن سنان الخفاجى فى فصاحة الكلمة بقولهم: إن فصاحة الكلمة هى خلوصها من تنافر الحروف ، والغرابة، ومخالفة القياس اللغوى أو الصرفى .

وخرج ابن سنان من ذلك إلى الكلام فى الألفاظ المؤلفة أو بمعنى أوضح إلى الحديث عن فصاحة الكلام ، ولاحظ أولا أنه لابد فيها من الشروط السابق ذكرها فى الكلمات المفردة ثم أخذ يبحثها من حيث التأليف ، وقال بأنه يوجد من الكلام ماتتنافر كلماته على نحو ماتتنافر حروف الكلمة الواحدة ويستشهد فى ذلك بقول الشاعر :

وقبرُ حرْبٍ بمكانٍ قفر   وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قبرُ

فهذا البيت مبنى من حروف متقاربة مكررة ، ولهذا يثقل النطق به ويعسر عسراً شديداً ، حتى يزعم بعض الناس أنه من شعر الجن .

ويناقش ماذهب إليه الرمانى من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا : فالمتلائم فى الطبقة العليا هو القرآن الكريم ، أما المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى فموجود فى كلام الناس ، وقد رد عليه ابن سنان بفساد تقسيمه للكلام وعدم صحته .

ويتحدث عن حسن الكلام فى السمع ، وأنه شىء يذاق ولا يلمس ، ويقول إن التأليف لايستحب فيه كثرة الكلام الوحشى الغريب، وكذلك العامى الساقط، ويطلب ألا تكون الصيغة مستعملة فى أمر مستكره مع اجتناب الكلمات الكثيرة الحروف فلا علقة للتأليف بها ، والشرط الأخير لابن سنان هو التكرار فى الكلام ، وفى رأيه أنه يجب أن لايتعدى الكلمة المفردة إلى أخواتها يقول : « إن تكرار التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف والتوكيد وغير ذلك من الأقسام والإسهاب فى إيرادها معدود فى جملة التكرار ويجب التوسط فيه ، فإن لكل شىء حدا ومقدارا لايحسن تجاوزه ، ولا يحمد تعديه »[1] .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٤ .

ومن الملاحظ أن كل هذه الشروط التى وضعها ابن سنان فى فصاحة الكلام جمعها المتأخرون من البلاغيين فى قولهم : إن فصاحة الكلام أن يخلو من التعقيد اللفظى والمعنوى وضعف التأليف ومخالفة القياس النحوى ، ومن تنافر الكلمات مع فصاحة المفردات .

ويرى ابن سنان أن من الفصاحة خصائص متصلة بالتركيب أو بالألفاظ المركبة ، وذلك أن حسن التأليف هو المعتبر فى الكلام ولا يكتفى بأن تكون الألفاظ فى نفسها مليحة رائقة ، بل لابد من حسن تأليفها مع أخواتها ، فإن اللفظ والمعنى إذا كانا رائقين ، وألفا مع غيرهما من الألفاظ تأليفا غير مرتبط كان ذلك كالعقد الذى أفسده الناظم : فجعل إلى جانب الفص خرزة ، وإلى جانب اللؤلؤة صدفة ، فقد أفسد نظامه ، وكذلك لو كان فى الصورة الإنسانية رأس شخص عند رجليه ، أو رجلاه عند رأسه أويده من صدره ، أو رجله من كتفه لكانت هذه الصورة غير منتظمة التأليف ، ولا مرتبطة الأعضاء ، ولا متناسبة الشكل[1] .

ويقول ابن سنان أن من وضع الألفاظ موضعها ألا يكون فى الكلام تقديم أو تأخير حتى لايؤدى ذلك إلى فساد معناه . وألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه يستشهد لذلك بأمثلة كثيرة ، ويضع تحت هذا حسن الاستعارة ، وقد كتب فيها طويلا مفيدا من الرمانى ، ومناقشا أبا بكر الصولى فى بعض تحليلاته لاستعارات أبى تمام ، والآمدى فى بعض تحليلاته للاستعارات فى موازنته بين الطائيين ، كما ناقش القاضى الجرجانى فى بعض تحليـــلاته لاستعارات المتنبى .

وأشار فى وضوح إلى مانبه عليه عبدالعزيز الجرجانى من أن التشبيه البليغ الذى لاتصحبه الأداة لايعد استعارة بل هو تشبيه محض . وتكلم عن أدوات التشبيه ، وهى الكاف وكأن وماجرى مجراهما[2] .

---

(١) تاريخ النقد العربى من القرن ٥ — ١٠ ( دكتور زغلول سلام — ط . دار المعارف ) ص ، ٢٩٢ .

(٢) سر الفصاحة ، ص ١٣٥ .

وقال بأنه لابد للاستعارة من مستعار، ومستعار منه، ومستعار له. وذكر أنها على ضربين: قريبة مختارة، وبعيدة مطروحة ويورد شواهد عديدة.

ومن وضع الألفاظ موضعها عنده أن لا يقع فى الكلام حشو على أنه عاد فجعل منه حسنا وقبيحا، وأدخل فى الحسن ماسماه من سبقوه باسم (الاعتراض) (والتتميم) (والايغال).

ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضا، وهذا مايسمى « بالمعاظلة » [٣] ويشير هنا إلى غلط قدامة فى فهم معنى المعاظلة، وتبيين الآمدى لخطئه. ثم يتحدث عن جمال السبك، ويعرض لرد الأعجاز على الصدور، وللتوشيح ويقول أن بعضهم يسميه (التسهيم) ومثاله قول الشاعر:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها .·. فلما انقضى مابيننا سكن الدهر

ومن وضع الألفاظ مواضعها ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم، ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، وتساق فى الجد ألفاظه وفى الهزل ألفاظه [١]، بل يستعمل فى جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض. ويدخل فى ذلك حسن (الكناية) فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح، ويشترط شرطاً آخر وهو ألا يستعمل فى الشعر المنظوم، والكلام المنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين، والمهندسين، ومعانيهم والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم [٢].

ويمضى ابن سنان إلى أصل ثان من أصول التأليف وهو المناسبة بين الألفاظ، إما من طريق الصيغة، وإما من طريق المعنى، ويدخل فى الطريق الاول ما سماه المتأخرون بمراعاة النظير، ويعرض للسجع والازدواج، ويحمل هنا على الرمانى، وغيره من المتكلمين الذين فرقوا بين فواصل القرآن والسجع

---

(١) سر الفصاحة، ص ١٨٣

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٨

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٢

فقالوا : إن الفواصل بلاغة والسجع عيب ، لأن الفواصل تتبع المعانى والسجع تتبعه المعانى . وعنده أن لا فرق بينهما ، وأن السجع يحمد ما دام يأتى طوعا سهلا تابعا للمعانى، ويقول إن القرآن لم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه فى الفصاحة، ويذكر أن من فواصله متماثلا ويريد به المسجوع ، ومتقاربا ويريد به المزدوج ، ويشير إلى تسمية قدامة لترك المجانسة فى مقاطع الكلام باسم (التخميع) ويستطرد هنا إلى الحديث عن القوافى ، ويحمل على أستاذه أبى العلاء المعرى لالتزامه مالا يلزم فى قوافى شعره ، وفواصل سجعه ، ويطالب الشعراء ألا يفتتحوا قصائدهم بما يتطير منه أو يستكره ، وأن يتحرزوا من الاقواء : وهو اختلاف إعراب القوافى . ومن عيوب القوافى عامة (كالإيطاء) و(السناد) ومن (التضمين) ومن قطع جزء من الكلمة فى آخر البيت وإلحاقه فى البيت التالى ، ويورد مثالا غريبا من ذلك لأبى العلاء المعرى [1] .

ومن التناسب عنده الترصيع : وهو اتفاق آخر الشطر الأول مع القافية ، وكذلك حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب واستشهد بقول الشريف الرضى :

قلبى وطرفى منك هذا فى حمى ∴ قيظ وهذا فى رياض ربيع

وقد سمى البلاغيون من بعده هذا الضرب باسم ( اللف والنشر ) .

ومن التناسب عنده الاعتدال فى الوصاف وعدم الإكثار منه فى الشعر ، وكذلك الجناس، وأشار هنا إلى تسمية قدامة لنوع منه باسم «المطابق» وهو ما سماه ابن المعتز « بالطباق » وقد فطن الآمدى إلى ذلك وأنكره عليه أشد الإنكار ، كما أشار إلى تسميته ما لا تتماثل فيه جميع حروف الكلمتين باسم « المضارعة » مثل ( تلاق وتلاف ) وصرح هنا بأن أستاذه أبا العلاء استحدث نوعا سماه ( مجانس التركيب ) لأنه يركب من الكلمتين ما تتجانس به الصيغتان كقوله :

مطايا مطايا وجدكن منازل ∴ منى زل عنها ليس عنى بمقلع

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١٥٥ وانظر سر الفصاحة ص ٢٢٠ .

ويخرج من ذلك إلى الحديث عن تناسب الألفاظ من طريق المعنى ،ويذكر أن معنى اللفظتين إما أن يكون متقاربا أو متضادا ويقول : وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتضاد من معانى الألفاظ ( بالمطابق ) ، وسماه أبو الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب - المتكافىء - وأنكر عليه ذلك أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى على ما حكيناه فى المجانس [1] .

ويذكر أنه إذا تعدد التضاد سمى عند بعض أصحاب الصناعة بالسلب والإيجاب ويصرح بأن قدامة سمى عكس الكلام ( التبديل ) .

ويجعل ابن سنان من شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام . حتى يعبر عن المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة وهذا الباب فى رأيه من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس .وقد قسم دلالة الألفاظ إلى المساواة والتذييل والإشارة مع بيان مواضعها .

وقال بأن الإيجاز يطلب فى مواطن ، والإطناب يطلب فى مواطن أخرى ، وتقوم بينهما المساواة . وهى أن يكون المعنى مساويا للفظ . ويوافق الرمانى على تقسيمه الايجاز إلى إيجاز قصر ،وإيجاز حذف. ويجعل من الإطناب التذييل، كما يجعل الإشارة واللمحة الدالة من الإيجاز .

ويذكر الخفاجى « أن من شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحا ، ظاهراً جليا لايحتاج إلى فكر فى استخراجه ، وتأمل لفهمه ، سواء كان ذلك الكلام الذى لايحتاج إلى فكر منظوما أو منثورا » [2].

ويعرض للفروق بين الشعر والنثر ويخطىء الصابى فى قوله : « أن الحسن الجيد من الشعر، ماأعطاك معناه بعد مطاولة ومماطلة، والحسن من النثر ماسبق معناه لفظه » . ففرق بين النظم والنثر فى هذا الحكم وهذا فرق لا يوافق عليه ابن سنان،

---

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

ويبرهن على ذلك بأن غرض المتكلم .. شاعرا وغير شاعر إبلاغ سامعه ما فى نفسه ، ولا يستقيم ذلك إلا بالوضوح ويطيل فى بيان وجهة نظره ، وتتضح هنا مبالغته لأن معانى الشعر وجدانية ، وهى بطبيعتها معان سيالة ، ويمكن أن تفهم أفهاما مختلفة ، ومن أجل ذلك كان ابن رشيق أدق منه حين جعل اتساع المعنى فى الشعر وكثرة احتمالاته من آيات روعته »[1] .

ويستطرد هنا ذاهبا إلى أن بعض القرآن أفصح من بعض وهو رأى يتفرع عنده من قوله بالصَّرفة فى الإعجاز القرآنى ، وعاد يردده فى هذا الموضع ، وجره كلامه فى الغموض إلى الحديث عن اللغز فى الكلام ، وقال إن شيخه أبا العلاء كان يستحسن هذا الفن ويستعمله كثيراً ، وضرب له مثالا من شعره [2] .

ويقول إن من نعوت البلاغة والفصاحة « الإرداف والتتبيع »[3] ، وهو ضرب من الكناية ويستشهد هنا بقول امرىء القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها .:. نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فإنه لما أراد أن يصف ترف هذه المرأة ونعمتها قال بأنها نؤوم الضحى .

وقد سمى أبو هلال العسكرى هذا الباب باسم « الأرداف والتوابع » وذكر ابن سنان من نعوت البلاغة والفصاحة أيضاً « التمثيل » وهو عنده كما عند ابن رشيق وقدامة أن يراد معنى فيوضع بألفاظ تدل على معنى آخر ، هو مثال للمعنى المقصود ، وقد سماه العسكرى ( المماثلة ) .

ويختم ابن سنان هذا الفصل بقوله : « هذا منتهى ما نقوله فى الألفاظ بانفرادها واشتراكها مع المعانى . ومتى وقف عليه عرف حقيقة الفصاحة ، ومائيتها ، وعلم أسرارها ، وعللها فأما الكلام على المعانى بانفرادها ، فقد قدمنا القول بأن

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١٥٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(٣) سر الفصاحة ، ص ٢٧٠ .

البلاغة عبارة عن حسن الألفاظ والمعانى، وأن كل كلام بليغ لا بد من أن يكون فصيحا ، وليس كل فصيح بليغا ، إذ كانت البلاغة تشتمل على الفصاحة وزيادة لتعلق البلاغة مع الألفاظ بالمعانى . فإذا كان قد مضى الكلام فى الألفاظ على الانفراد والاشتراك فانذكر الكلام على المعانى مفردة من الألفاظ ، ليكون هذا الكتاب كافيا فى العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة ، فإنهما وإن تميزا من الوجه الذى ذكرته فهما عند أكثر الناس شىء واحد ، ولا يكاد يفرق بينهما إلا القليل [١] .

وبعد ذلك يعقد فصلا للكلام فى المعانى المفردة .. ويبتدىء بصحة التقسيم، ويقول أنه ينبغى أن يتجنب فيها الاستحالة . والتناقض ، وهو يستمد هنا من قدامة مباشرة ، وينتقل إلى صحة الأوصاف فى الأغراض بحيث يتطابق الكلام شعراً ونثراً مع من يوجه إليهم ، ومع الأحوال والمقامات ، وهو مايسميه البلاغيون . . مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ويذكر من صحة المعانى صحة التشبيه ، ويتحدث عنه حديثا مفصلا ويستشهد بأكثر من شاهد، ويعرض للتشبيه مع الأداة وبدونها . وينتقل إلى الحديث عن صحة النسق والنظم ويتكلم عن المبالغة فى المعنى والغلو فيه ، وعن ( الاحتراس ) ويسميه ( التحرز عما يوجب الطعن ) ، وعن ( الاستدلال ) وهو ماسماه أبو هلال العسكرى بالاستشهاد والاحتجاج .

ويتعرض بعد ذلك لبعض آراء النقاد فى الشعر من القدماء والمحدثين ، ثم يختم كتابه بوصية رقيقة للشاعر والناثر بعدم التكلف والاسترسال مع الطبع وفرط التحرز، وتجنب الإسهاب ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله، ومعيار فهمه [٢] .

ويتضح لنا من تحليل كتاب ابن سنان :

أولا : أنه فى مجموعه كتاب فى البلاغة .

ثانيا : أنه أراد بحث الفصاحة والبلاغة للتعرف على فصاحة القرآن الكريم .

---

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣ .

ثالثا : أنه ذكر أن الفصاحة صفة اللفظ دون المعنى لأن الكلام أصوات قبل أن يكون مجرد معان قائمة فى الذهن . ومن هنا وجب تفصيل القول فى الأصوات وأقسامها وصلة الفصاحة بتوافقها وتلاؤمها ، وشروط التلاؤم وخصائصه ، ومايتصل بها من أمور أخرى متعلقة باللفظ .

رابعاً : تكلم عن اللفظ المفرد والمركب وجعل لكل منهما صفات ينبغى توافرها وبعضها مشترك بينهما .

خامسا : اشترط البيان والوضوح ولم يمل إلى الغموض ، ونرى ذلك واضحا عند حديثه عن فنون المعانى والبديع التى بين دفتى كتابه .

وواضح أن الكتاب عالج فنون البلاغة والبديع فى ثنايا حديثه عن سر الفصاحة إذا هى عنده تشمل حسن اللفظ وحسن المعنى بالضبط ، وقد أثر هذا الكتاب تأثيرا كبيرا فى علماء البلاغة الذين جاءوا بعده . ونخص منهم ضياء الدين بن الأثير الذى ظهر تأثيره فيه فى ( المثل السائر ) سواء فى الهيكل العام للكتاب — إذ بناه أساسا على مقالين فى الألفاظ والمعانى — أم فى التفصيلات إذ أخذ عنه كل ماقال تقريبا فى الجزء الخاص باللفظ مفردا ومؤلفا فى المقالة الأولى [1] وكذلك أخذ كثيرا فى المقالة الثانية . وإن كان قد خالفه فى بعض القضايا .

ملاحظة أخرى على ( سر الفصاحة ) وهى أن به عيبا كبيرا فى الأساس الذى قام عليه ، وخللا ظاهراً فى ترتيب أبوابه ، وخطأ ملموسا فى توزيع موضوعاته على هذه الأبواب فالكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام أولها الكلام على شروط الفصاحة فى اللفظة الواحدة ، وثانيها الكلام على شروطها فى الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض وثالثها الكلام على المعانى مفردة عن الألفاظ فنراه مثلا يتكلم عن الاستعارة فى القسم الثانى ، ثم يلحقها بالكلام عن الفصاحة ، ويتكلم فى

---

(١) تاريخ النقد العربى من القرن ٥ — ١٠ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

القسم الثالث عن التشبيه ويلحقه بالكلام عن البلاغة ، مع أنهما من واد واحد في هذه العلوم ، وكلاهما يبحث الآن في علم البيان . ونراه يتكلم في القسم الثاني عن الإيجاز والإطناب والمساواة فيلحق الكلام عنها بالكلام عن الفصاحة مع أنه يقصد من الكلام عنها في هذه العلوم بيان مواضعها اللائقة بها . وهذا يرجع إلى البلاغة لا إلى الفصاحة ، ولهذا توضع الآن في علم المعاني لأنه يبحث عن أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال .

عيب آخر في الكتاب وهو أن ابن سنان يكرر الكلام عن موضوع واحد في أكثر من مكان في كتابه فمثلا تكلم عن ( الكناية ) في (ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤) ثم عاد فكرر الكلام عنها في ( ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ) .

وكذلك يؤخذ عليه كثرة الأحكام المطلقة والتعميم في قضاياه .. كبنائه الفصاحة في اللفظة المفردة على التباعد بين الحروف . وعلى الرغم من كل ذلك فيجب ألا ننكر جهده في الكتاب ، ولا نغفل فضله في أنه وضع به الأساس العلمي لاتجاه أصحاب البديع .

ومما لاشك فيه أن أسلوب الكتاب أقرب إلى أسلوب المتأخرين .. فهو أسلوب سهل . . بلاغي . . يساعد على تربية ملكة النقد بخلاف أسلوب عبد القاهر مثلا . .

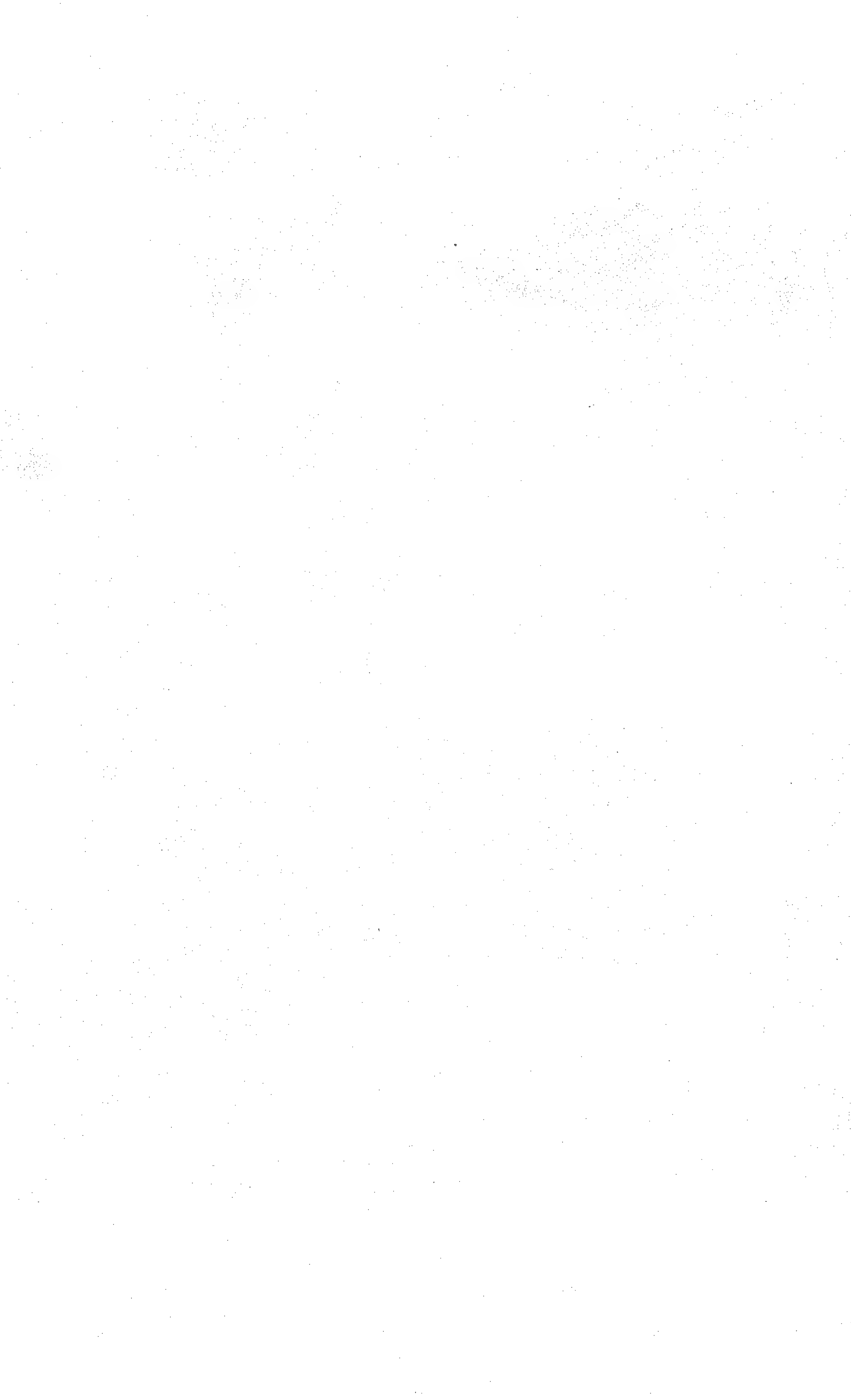
وقد صار سر الفصاحة حجة علماء البلاغة في مصر والشام في الاهتمام بالألفاظ وكشف عن فلسفتهم في البديع .(١)

. . .

---

(١) انظر تاريخ النقد العربي من القرن ٥ — ١٠ ص ٢٦٣ .

# مصادره



نستطيع أن نقسم مصادر ابن سنان إلى أربع طوائف :

الأولى : النحاة

الثانية : البلاغيون

الثالثة : النقاد

الرابعة : المتكلمون

أولا : النحاة : استشهد ابن سنان بما ذكره أبو عبيده معمر بن المثنى وأبو العباس أحمد يحيى ( ثعلب ) عند كلامه عن « الحروف » [1] كما ذكر ما قاله أبو الحسن سعيد بن مسعدة ( الاخفش الأوسط ) وما قاله على بن سليمان النحوى ( الأخفش الأصغر ) وقد ناقش السيرافى عند كلامه عن الكلام أهو مصدر أم اسم المصدر ، وقد ذكر السيرافى بأن الكلام مصدر [2] ، كما ناقشه فى كلامه عن التقديم والتأخير ، وفى فصله بين الصلة والموصول . إلى جانب ذلك ذكره للخليل فى أكثر من موضع فى كتابه .

ومن النحويين الذين تأثر بهم ابن سنان : سيبويه وابن جنى وأبى العباس محمد بن يزيد المبرد وقد وردت أسماؤهم فى صفحات عدة من كتابه .

ثانيا : البلاغيون : ومما هو جدير بالذكر أن مباحث النقد كانت مختلطة بمباحث البلاغة فى هذه الفترة ، وخصوصا فى التشبيه والاستعارة .

ومن البلاغيين الذين تأثر بهم ابن سنان الجاحظ وقد استمد منه فى تعريفه البلاغة ، وفى كلامه على فصاحة الكلمة والكلام ، إلى جانب ذلك فقد أخذ عن ابن المعتز عند كلامه عن فنون البديع وعن قدامة بن جعفر ، كما ناقش أبا بكر الصولى ( ٣٣٨ هـ ) فى بعض تحليلاته لاستعارات أبى تمام ، والآمدى فى بعض تحليلاته للاستعارات فى موازنته بين أبى تمام والبحترى .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

وقد كتب طويلا عن حسن الاستعارة مفيداً من الرمانى ، ومثبتا فساد رأيه فى أن الكلام على ثلاثة أضرب : متلائم فى الطبقة الوسطى ومتلائم فى الطبقة العليا ، ومتنافر . وأشار فى وضوح إلى ما نبه عليه على بن عبد العزيز الجرجانى من أن التشبيه البليغ الذى لا تصحبه الأداه لا يعد استعارة بل هو تشبيه محض.

ويتضح مما سبق أن ابن سنان الخفاجى قد تأثر بالفحول من النحاة والبلاغيين.

ثالثا : المتكلمون : من المعروف أن ابن سنان كان يميل فى آرائه إلى مذهب المعتزلة ، وذهب إلى القول بالصرفة فى إعجاز القرآن . . أى أن الله صرف العرب عن محادثته والإتيان بمثاله ، ونقل عن الجبائى أحد الرؤساء من متكلمى المعتزلة فى كتابه المسائل البغداديات » .

وقد تأثر بما ذكره أبو هاشم الجبائى فى الفصاحة التى بها يفضل بعض الكلام على بعض .

وممن تأثر بهم ابن سنان من المتكلمين القاضى أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادى قاضى قضاة الدولة البويهية بإيران وأكبر أعلام المعتزلة فى عصره ، وكان عبد الجبار دقيق النظر ، نافذ البصيرة . أخذ بفكرة أستاذه الجبائى إلا أنه أحس أن فيها نقصا لأنه لم يلاحظ صورة تركيب الكلام وهى أساسية فى بلاغة العبارة وفصاحتها فعقد لذلك فصلا صور فيه رأيه فى العلة التى بها يتفاضل الكلام فى فصاحته وهو يفتتحه على هذه الشاكلة :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة

وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها ، وموقعها . فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها »[1] .

ولاشك أن عبد الجبار بتفسيره للفصاحة على هذا النحو يلتقى بالأشعرية فى قولهم بالنظم لا بالمعنى العام الذى فهمه أستاذه الجبائى ، ويقول عبد الجبار إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام من حيث هى . فالكلمة لا تعد فصيحة فى نفسها إذ لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها . ولا بد من ملاحظة أبدالها ونظائرها . ولا بد من ملاحظة حركاتها فى الاعراب . ولا بد من ملاحظة موقعها فى التقديم والتأخير .

وبذلك يقترب عبد الجبار إقترابا شديداً من عبد القاهر فى تفسيره للنظم بكتابه « دلائل الإعجاز » . وقد ناقش آراء القدماء فى البلاغة وتعريفهم لها خاصة ما جمعه الجاحظ والعسكرى ، وقال إنها ليست حدوداً واضحة بل هى أوصاف للبلاغة مثل قولهم : « إنها لمحة دالة ، أو معرفة الفصل والوصل ، أو أن البلاغة أن تصيب فلا تخطىء ، وتسرع فلا تبطىء . أو أنها الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل[2] الخ .

إلا أن ابن سنان قد عرف البلاغة تعريفات إستمدها مما كتبه الجاحظ فى بيانه وذكر ماقاله بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة التى يقول فيها : « إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ، ولا صائرة إلى مستقرها ، ولا حالة فى مركزها ، بل وجدتها قلقة فى مكانها ، نافرة من موضعها . فلا تكرهها على القرار فى غير موطنها ، فإنك إذا لم [illegible] قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، وأزرى عليك من أنت فوقه ، وهذا كلام صحيح يجب أن يقتدى به فى هذه الصناعة »[3] .

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) سر الفصاحة ص ٦١ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص ١١٧ .

(٣) سر الفصاحة ص ٢٠٢ .

وقد تأثر ابن سنان بأبى الهذيل العلاف عند كلامه على الحكاية والحكى[1].

رابعاً: النقاد: ومن النقاد الذين تأثر بهم ابن سنان، وذكرهم فى أكثر من موضع فى كتابه، أبو بكر الصولى، والآمدى، وأبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى.

وقد عرض ابن سنان لبعض آراء النقاد فى الشعر وفى القدماء والمحدثين ويقول:

«وقد صنف قوم فى نقد الشعر رسائل ذكروا فيها أبوابا من الصناعة لاتخرج عما ذكرناه فى كتابنا هذا، إلا أنهم ربما جعلوا للمعنى الواحد عدة أسماء، كالترصيع الذى يسمونه ترصيعاً وموازنة وتسميطاً وتسجيعاً. وهو كله يرجع إلى شىء واحد»[2]:

وواضح أنه يعترف بمراجعته لمن كتبوا قبله فى البلاغة والنقد وقد شكا من اختلافهم فى تلقيب بعض الفنون على نحو مامربنا، ووقف بعد ذلك يقارن بين الشعر والنثر وما يقال فى تفضيل أحدهما على الآخر وما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته من علوم اللغة والنحو، وما يحتاجه الشاعر من معرفة على العروض والقوافى وأخبار العرب وأنسابهم وأمثالهم، ومايحتاجه الكاتب من بعض ذلك ومن معرفة فنون المخاطبات ورسوم التقليدات مع الإطلاع على كتاب الله وشريعته والحديث النبوى، لما يكتب فيه من تقليد الولاه وعهود القضاة، والتوقيعات فى المظالم.

---

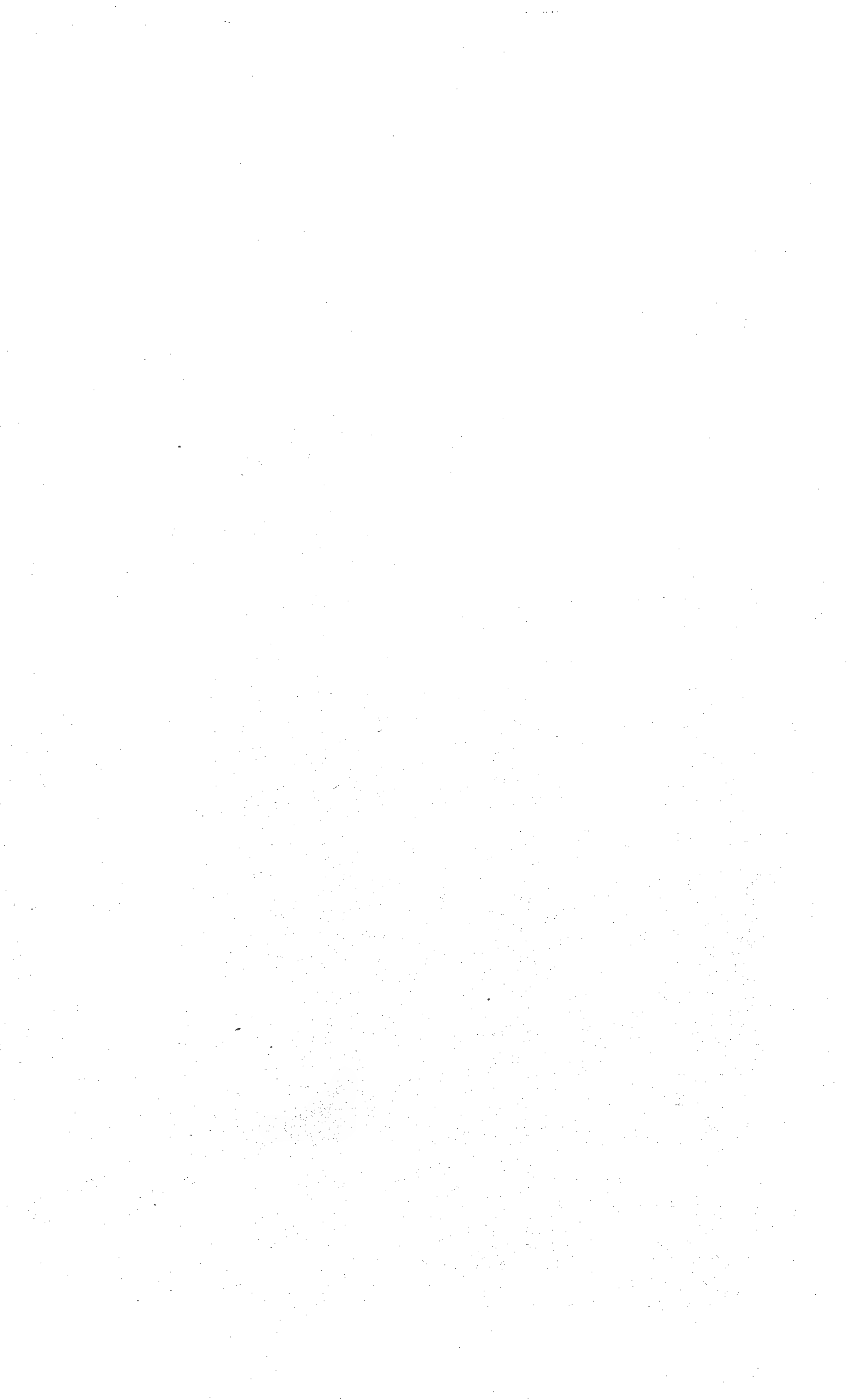
(١) سر الفصاحة ص ٤٣ — ٤٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٦.

وقد تأثر ابن سنان باخوان الصفا فى رسائلهم عند كلامه عن الأصوات والحروف ومخارجها .

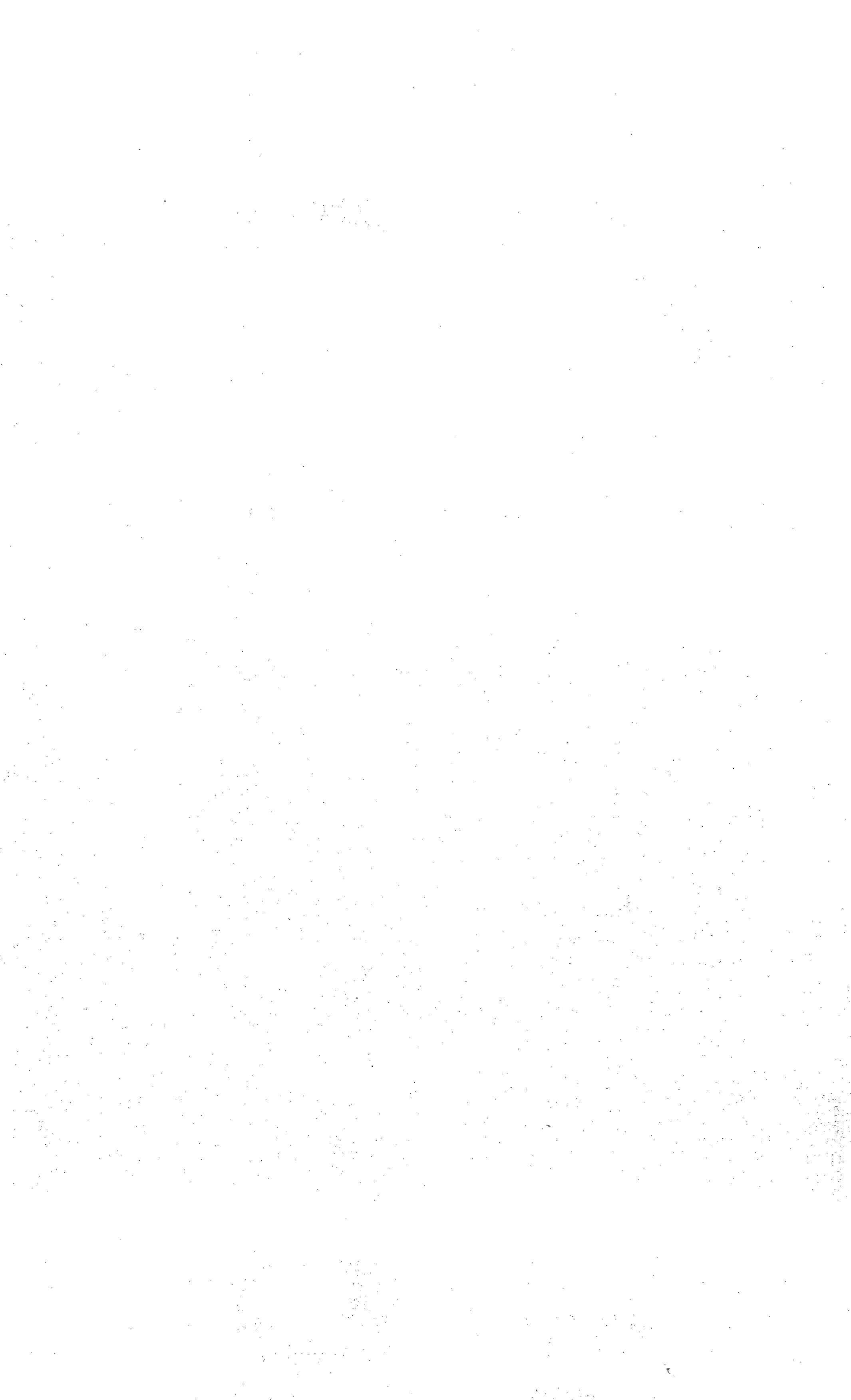
وعاصر ابن سنان عبد القاهر الجرجانى ( المتوفى ٤٧١ هـ ) وابن رشيق القيروانى ( ٤٦٣ هـ ) إلا أنه يبدو أن أحد هؤلاء الثلاثة لم يؤثر فى صاحبه أى لون من التأثير ولم يقرأ أحدهم ما كتبه الآخر .

ولعلنا بذلك قد عرفنا أهم المصادر التى استمد منها ابن سنان الخفاجى .



# الفصل الثاني

# الفصاحة والبلاغة



# الفرق بين الفصاحة والبلاغة

تحدث ابن سنان عن الفصاحة والبلاغة ، والفرق بينهما بادئاً بتعريف الفصاحة بأنها الظهور والبيان[1] ، ومنها أفصح الصبح إذا أضـاء ، وأفصح اللبن إذا انحلت عنه رغوته ، فظهر وفصح أيضا ، وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللسان إذا عبر عما فى نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ .

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلاهما . لأن كل واحد منهما هو الإبانة على المعنى والإظهار له[2] .

وفرق ابن سنان بين الفصاحة والبلاغة فقال : «[3] إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، لايقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة . وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه » وهو فرق اصطلاحى ظل شائعاً بعده عند كثير من البلاغيين .

ويقول : « وقد حد الناس البلاغة بحـدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة . فمن ذلك قول بعضهم ( لمحة دالة ) وهذا وصف من صفاتها ، فاما أن يكون حاصراً لها وحدا يحيط بها فليس ذلك بممكن ، لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هـذا الحـد ، وكذا قال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل ، لأن الإنسان قـد يكون عارفا بالفصل والوصل ، عالما بتمييز مختار الكلام من مطرحه ، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب ، ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره والحدود لا يحسن فيها التأول ، وإقامة المعاذير ، وغرابة ألفاظ لا تدل على المقصود لأنها مبنية على الكشف الواضح ، موضوعة للبيان الظاهر والغرض بها السلامة من الغامض ،

---

(١) سر الفصاحة ص ٥٩ .

(٢) الصناعتين — العسكرى «تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم م . ط . الحلبي — الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م ) ص ٧ .

(٣) سر الفصاحة ص ٦٠ .

كيف يوقع فى غامض بمثله[1] ويقول : وكذلك قول الآخر : « البلاغة أن تصيب فلا تخطىء ، وتسرع فلا تبطىء لأن هذا يصلح لكل الصنائع وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها » .

واعترض على من عرف البلاغة بأنها : « الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل » وقول من قال : البلاغة اختيار الكلام وتصحيح الأقسام لأن هذين إنما سئلا عن حد يبين الكلام المرفوض من المختار ، والخطأ من الصواب ، ويوضح كيف يكون الايجاز مختاراً ، ومتى يقع الإطناب مرضيـــا محموداً فأحال على ما السؤال فيه باق ، وعدم العلم معه موجود حاصل .

ثم يختم كلامه معلقا على هذه التعريفات بقوله : «[2] وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، ويقرر بأن الفصاحة شطرها وأحد جزءيها .

ونراه يعجب بما قاله ابراهيم بن محمد المعروف بالإمام : « يكفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا الناطق من سوء فهم السامع. وهذا كلام مختار فى تفضيل البلاغة »[3] .

وقول سهل بن هارون الكاتب : « العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم » .

ثم يقول : «[4] انى لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة والمطبوعين على فهمها ونقدها ، مع كثرة من يدعى ذلك ويتحلى به ، وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجالس ، ويجارى أربابه فى المحافل ، وقد كنت أظن أن هذا شىء

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٠ — ٦١
(٢) المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢
(٣) المرجع السابق ص ٦٣
(٤) المرجع السابق ص ٦٥

مقصور على زماننا اليوم ومعروف فى بلادنا هذه ، حتى وجدت هذا الداء قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه فى كتبهما . فعلمت أن العادة به جارية والرزية فيه قديمة ، ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب ، وأملت وقوع الفائدة به ، إذ كان النقص فيما أبنته شاملا ، والجهل به عاما ، والعارفون حقيقته قرحة الأدهم[1] بالإضافة إلى غيرهم والنسبة إلى سواهم » .

وقد أتت البلاغة فى كثير من نصوص الجاحظ ملحوظا فيها معنى الخطابة أو الحديث كما أتت الخطابة بمعنى البلاغة ، فنرى الجاحظ يتحدث عن المعانى ، وكيف تجمل إذا أعارها البليغ مخرجا سهلا ونطقا جميلا[2] .

أما الفصاحة فقد أتت كذلك مرادفة للبيان والبلاغة فى مواضع كثيرة[3] وعطفت على البلاغة فى قوله عن كلام مستهجن رواه بعض الكتاب فى كتبهم : « فإن كانوا قد رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة » . كما عطفت على البيان فى قوله : « فلو أننا لم نجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم « فضيلة فى نبوته ولا مزية فى البيان والفصاحة لكنا لا نجد بدا من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء » .

وعطف الإفصاح على البيان عطف تفسير فى قوله : « ومدح الله القرآن بالبيان والإفصاح وحسن التفصيل والإيضاح ، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ » .

وقد تأتى بمعنى مطلق النطق الذى يفصل بين الإنسان والحيوان فيدخل فيها كل تعبير بأى لغة من اللغات ، ومن هذا قوله : « والإنسان هو الفصيح وهو الناطق . . . » .

---

(١) الأدهم : الأسود من الخيل ، والقرحة : بياض فى وجهه دون الغرة .

(٢) البيان والتبين ١/ ٢٣٦ وانظر البلاغة العربية فى دور نشأتها للدكتور سيد نوفل ص ٥

(٣) البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ١٢٨ .

وقوله : «[١] والإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية وليس العربى أسوأ فهماً لطمطمة الروى من الرومى لبيان لسان العربى ، فكل إنسان من هذه الوجهة يقال له فصيح .

غير أن الفصاحة كان لها بعد هذا معنى مستقل يميزها عن البيان والبلاغة ومطلق النطق ، ذلك هو الأداء اللفظى الكامل من حيث مخارج الحروف والبعد عن اللكنة واللحن والعجمة » .

ويعرف العسكرى البلاغة بأنها من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشىء منتهاه ، والمبالغة فى الشىء الانتهاء إلى غايته فسميت البلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها ، فتنتهى بك إلى ما فوقها ، وهى البلاغ أيضا . ويقال الدنيا بلاغ ، لأنها تؤديك إلى الآخرة ، والبلاغ أيضا : التبليغ ، فى قوله الله عز وجل : « هذا بلاغ للناس » أى تبليغ ، ويقال بلغ الرجل بلاغة ، إذا صار بليغا ، كما يقال « نبل نبالة ، إذا صار نبيلا »[٢] ويرى أبو هلال أن البلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى بليغاً إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام وأما تسمية المتكلم بليغا فتوسع ، وحقيقته أن كلامه بليغ ، كما تقول فلان رجل محكم ، وتعنى أن أفعاله محكمة ، ثم كثر استعمال ذلك حتى صار كالحقيقة ويرى أنه لا يجوز أن يسمى فصيحاً لأن الفصاحة تتضمن معنى الآلة وهى اللسان .

ويؤكد العسكرى أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وكل منهما الإبانة عن المعنى والإظهار له[٣] » .

---

(١) البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ١٢٩

(٢) الصناعتين ص ٦

(٣) المرجع السابق ص ٧

ويرى عبد القاهر أنه لما كان هدف الأديب إذا نطق أو كتب أن يخبر السامع أو القارىء عما يقصد إليه من الأغراض ، وأن ينقل إليهما ما يشعر به فى قرارة قلبه ، ويكشف لهما عما فى ضميره، حتى يشعرا عما يشعر هو به ، وينفعلا كانفعاله[1] كانت وسيلته إلى ذلك العبارة البليغة المؤثرة .

وليس هناك معنى لكلمات البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة وسائر ما يجرى مجراها — غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها ، ثم « تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولى على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب.وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد » .

« ولا جهة لاستعمال هذه الخصال : غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية »[2] .

ويتضح من كلام عبد القاهر أن البلاغة هى حسن دلالة الكلام على معناه فى صورة بارعة من التعبير ولا وسيلة إلى ذلك إلا باختيار العبارة التى هى أشد اختصاصا به وكشفا عنه ، وإظهاراً له فى مظهر فاضل نبيل . ونراه يعالج مشكلة نصب نفسه لها ووقف جزءاً كبيراً من كتابه فى الحديث عنها تلك هى مشكلة اللفظ والمعنى ، وإلى أيهما ترجع البلاغة .

ونحن نلاحظ أن عبد القاهر لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة لأنهما عنده مترادفان ، ويعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم مافى نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٧

(٢) المرجع السابق نفسه وانظر عبد القاهر الجرجانى — سلسلة أعلام العرب — للدكتور أحمد أحمد بدوى، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٩٤ — ٩٥ .

ويجب ألا نغفل فضل ابن سنان فى ذلك فهو بحق أول من فرق فرقاً واضحاً بين البلاغة والفصاحة ، وعنه أخذ ذلك ابن الأثير فى مثله السائر ، ومن تلاه من البلاغيين المتأخرين الذين جعلوا الحديث فيهما مقدمة الكلام فى علوم البلاغة على نحو ما يتضح لنا عند الخطيب القزوينى[1] . فالواقع أن ما كتبه فى الفصاحة والبلاغة ليس إلا خلاصة لبحوث سابقيه .

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ( مطبعة السنة المحمدية ) ١/٢

# فصاحة الكلمة والكلام

يعرف ابن سنان الخفاجي الفصاحة بأنها الظهور والبيان[1]، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته ، وفصح فهو فصيح ، وسبق أن ذكرنا ذلك فى دراستنا التحليلية للكتاب (٢).

ولا ريب فى أن ابن سنان أول من فصل القول فى الفصاحة ، وقد قسمها قسمين أساسيين هما فصاحة الكلمة المفردة ، وفصاحة الكلمات المركبة ، ونحن نعرض ذلك فى وضوح :

## أولا : فصاحة الكلمة :

يضع ابن سنان شروطا عدة متى وجدت وتكاملت فى الكلمة كانت فصيحة وهى :

١ ــ أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، واستشهد فى ذلك بالألوان ، فكلما كانت الألوان متباينة كانت فى النظر أحسن ، وكذلك الحروف .

وقد رد ابن الأثير على ماذكره ابن سنان فى تباعد مخارج الحروف فقال :

« أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائرة عليه ، لأن الواضع قسمها فى وضعه ثلاثة أقسام : ثلاثية ورباعية وخماسية . والثلاثى من الألفاظ هو الأكثر ، ولايوجد فيه مايكره استعماله إلا الشاذ النادر ، وأما الرباعى فإنه وسط بين الثلاثى والخماسى فى الكثرة عدداً واستعمالا ، وأما الخماسى فانه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا ماجاء على الشذوذ ، وعلى هذا فإن أكثر اللغة مستعمل غير مكروه ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع

---

(١) سر الفصاحة ص ٥٩ .

(٢) انظر ص ٥٢ من كتابنا .

بعض استثقالا واستكراها ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين .
وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ،ولا بين اللام والراء، ولا الزاى والسين ،
وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب » .

ويقول ابن الأثير إن حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح مايقبح ويذكر لذلك مثالا قائلا :

« إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ ، وقيل لك : ماتقول فى هذه اللفظة أحسنة هى أم قبيحة ؟ فإنى لاأراك عند ذلك إلا تفتى بحسنها أو قبحها على الفور ، ولو كنت لاتفتى بذلك حتى تقول للسائل اصبر إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ماذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطا فى اختيار الألفاظ[1] » .

والواضح من رد ابن الأثير أن حاسة السمع هى التى تحكم على اللفظة بالحسن أو القبح لا لمخارج الحروف ولعلنا نوافق ابن الأثير فيما ذهب إليه .

٢ — أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسنا ومزية على غيرها وإن تساوتا فى التأليف من الحروف المتباعدة .

٣ — أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية ويستشهد بأبى عثمان الجاحظ ، وأن تكون غير ساقطة عامية ، وأن تكون جارية على العرف العربى الصحيح فى التصريف والاستعمال .

وقد رد عليه ابن الأثير فى مثله السائر يقول : « وأما ماذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربى فليس ذلك مما يوجب لها حسنا ولا قبحا وإنما يقدح فى معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ فكيف يعد ذلك من جملة الأوصاف الحسنة » .

ثم يذكر ابن سنان أن من شروط فصاحة الكلمة ألا يكون معناها

---

(١) المثل السائر ص ٩٢ — ٩٥ .

القديم قد هجر وأصبحت تدل على شيء كريه . وقد رد عليه[1] ابن الأثير أيضاً فقال :

« واعلم أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجبت قبحه ولو لم تجيء معه لما استقبح كقول الشريف الرضي :

أعزز على بأن أراك وقد خلت   من جانبيك مقاعـــد العواد »

وقد ذكر ابن سنان الخفاجي هذا البيت وعلق بقوله (٢) :

إن إيراد — مقاعد — في هذا الموضع صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر ، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلا . فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لاخفاء به .

وتعقبه ابن الأثير قائلا : وقد جاءت هذه اللفظه — المعيبة في الشعر — في القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية ، وهي قوله تعالى : « وإذا غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال(٣) » ، وكذلك قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً(٤) » ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت في الشعر ، ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد ، مقاعد الزيارة أو مجرى بجراه لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة ، ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ماتراه من الحسن وجاءت على ماتراه من القبح في قول الشريف الرضي .

وقال ابن سنان أن من شروط فصاحة الكلمة ألا تكون كثيرة الحروف ويستشهد على ذلك بقول أبي نصر بن نباتة :

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم   ألا إن مغناطيسهن الذوائب

---

(١) المثل السائر ص ١٥٠ .
(٢) سر الفصاحة ص ٩٣ .
(٣) سورة آل عمران ( آية ١٢١ ) .
(٤) سورة الجن ( آية ٩ ) .

فكلمة ( مغناطيسهن ) كثيرة الحروف وهذا هو وجه قبحها عنده .

كما استشهد بقول أبى الطيب المتنبى :

إن الكريم بلا كرام منهم    مثل القلوب بلا سويداواتها[١]

فكلمة ( سويداواتها ) كثيرة الحروف أيضاً ولذلك فهى قبيحة .

وقد رد عليه ابن الأثير يقول[٢] « إن قبح هذه اللفظة ( سويداواتها) لم يكن بسبب طولها ، وإنما هو لأنها فى نفسها قبيحة ، وقد كانت وهى مفردة حسنة فلما جمعت قبحت — لا بسبب الطول ، والدليل على ذلك أنه قد ورد فى القرآن الكريم ألفاظ طوال وهى مع ذلك حسنة .

كقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » ، فإن هذه اللفظة تسعة أحرف ، وكقوله تعالى « ليستخلفنهم فى الأرض » فإن هذه اللفظة عشرة أحرف ، وكلتاهما حسنة رائقة ، ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك ، ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة ( سويداواتها ) الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف ، ومع هذا فإنها قبيحة ، ولفظة (ليستخلفنهم) عشرة أحرف وهى أطول منها بحرفين ومع هذا فإنها حسنة رائقة ، والأصل فى هذا الباب ماأذكره وهو أن الأصول من الألفاظ لاتحسن إلا فى الثلاثى وفى بعض الرباعى وأما الخماسى من الأصول فإنه قبيح[٣] » .

ويستمر ابن سنان فى ذكر الشروط الواجب توافرها فى اللفظة فيقول : يجب أن لا تصغر تصغير تعظيم على نحو مايصنع المتنبى فى كثير من الألفاظ ، ورد عليه ابن الأثير فقال : « وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شىء لطيف أو خفى أو ماجرى مجراه فهذا مما لاحاجة إلى ذكره فإن المعنى يسوق إليه ، وليست معانى التصغير من الأشياء الغامضة التى يفتقر إلى التنبيه عليها ، فإنها

---

(١) سر الفصاحة ص ٩٦ . وسويداء القلب : حبته ، وجمعه سويداوات .
(٢) المثل السائر لابن الأثير ص ١١١
(٣) المرجع السابق ص١١١ ، ١١٢ .

مدونة فى كتب النحو ، وما من كتاب نحو إلا والتصغير باب من أبوابه ، ومع هذا فإن صاحب هذه الصناعة مخير فى ذلك إن شاء أن يورده بلفظ التصغير وإن شاء بمعناه كقول بعضهم :

لو كان يخفى على الرحمن خافيةٌ     من خلقه خفيتْ عنـــه بنو أسدِ

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ، ويحتقر من شأنهم بألفاظ التصغير ، ويجىء هكذا كما جاء بيته فى هذا . فالوصية به إذاً ملغاة لاحاجة إليها »[1].

وقد فصل ابن سنان القول فى فصاحة الكلمة مستشهدا فى ذلك بأمثلة كثيرة منتهيا إلى ضرورة توافر هذه الشروط فى اللفظة حتى تكون فصيحة .

ثانياً : فصاحة الكلام :

وإذا كنا قد تكلمنا عن فصاحة الكلمة المفردة ، وقلنا فيها مايستدل به على غيره . فلنذكر الآن ماقيل فى الكلام المؤلف ، وهو فصاحة الكلام أو بمعنى آخر فصاحة المركب . ويلاحظ ابن سنان أنه لا بد فيها أولا من الشروط التى ذكرها فى الكلمة المفردة ، ثم أخذ يبحثها من حيث التأليف فلاحظ أن من الكلام ماتتنافر كلماته على نحو ماتتنافر حروف الكلمة الواحدة ويستشهد فى ذلك بقول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ     وليس قُرْبَ قبر حربٍ قَبْرُ

ويناقش الرمانى فيما ذهب إليه من أن تأليف الكلام على ثلاثة أضراب : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ، وهو القرآن الكريم ، ويجرى الأول والثانى فى كلام الناس ، وقد رد عليه ابن سنان بفساد تقسيمه الكلام وعدم صحته ؛ لأن الكلام إما متنافر أو متلائم ولا واسطة

---

(١) المثل السائر ص ٩٤ — ٩٥ .

بينهما ، ويصرح هنابأن فى كلام العرب متلائماً كالقرآن ، وأن إعجازه الحقيق إنما يرجع إلى صرف الله لهم عن معارضته ، ويذهب إلى أن المتلائم قد يفوق بعضه بعضا كما أن المتنافر قد يشتد تنافره ، وقد يقل ويضعف .

ومن فصاحة الكلام مايختص بالأصول والمقومات. ويذكر الخفاجى أول أصل ومقوم عنده وهو وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا. ويندرج تحت هذا مباحث منها ألا يكون فى الكلام تقديم أو تأخير يفسدانه إلى جانب حسن الاستعارة .

ومن الوضع الصحيح للألفاظ أن تكون خالية من المعاظلة[1] وهى تراكب الكلام ، وتداخل بعضه فى بعض . وأن لايعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم ، ولا فى الذم بالألفاظ المستعملة فى المدح ، وتساق فى الجد ألفاظه وفى الهزل ألفاظه ، لكل مقام مقال ، ويدخل فى ذلك حسن الكناية فى الموضع الذى لايحسن فيه التصريح ، وأن لايستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور ألفاظ المتكلمين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم، إلى جانب ذلك المناسبة بين الألفاظ إما من طريق الصيغة وإما من طريق المعنى ، ومن فصاحة الكلام صحة التشبيه ومطابقته لمقتضى الحال .

وتحدث ابن سنان عن حسن الكلام فى السمع ، وأنه شىء يذاق ولا يلمس، ويقول إن التأليف لايستحب فيه كثرة الكلام الوحشى الغريب ، وكذلك العامى الساقط ، ويطلب ألا تكون الصيغة مستعملة فى أمر مستكره ، مع اجتناب الكلمات الكثيرة الحروف ، فلا علقة للتأليف بها .

والشرط الأخير لابن سنان هو ( التكرار ) فى الكلام ، وفى رأيه أنه يجب ألا يتعدى الكلمة المنفردة إلى أخواتها يقول : « إن تكرار التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف والتوكيد وغير ذلك من الأقسام والإسهاب

---

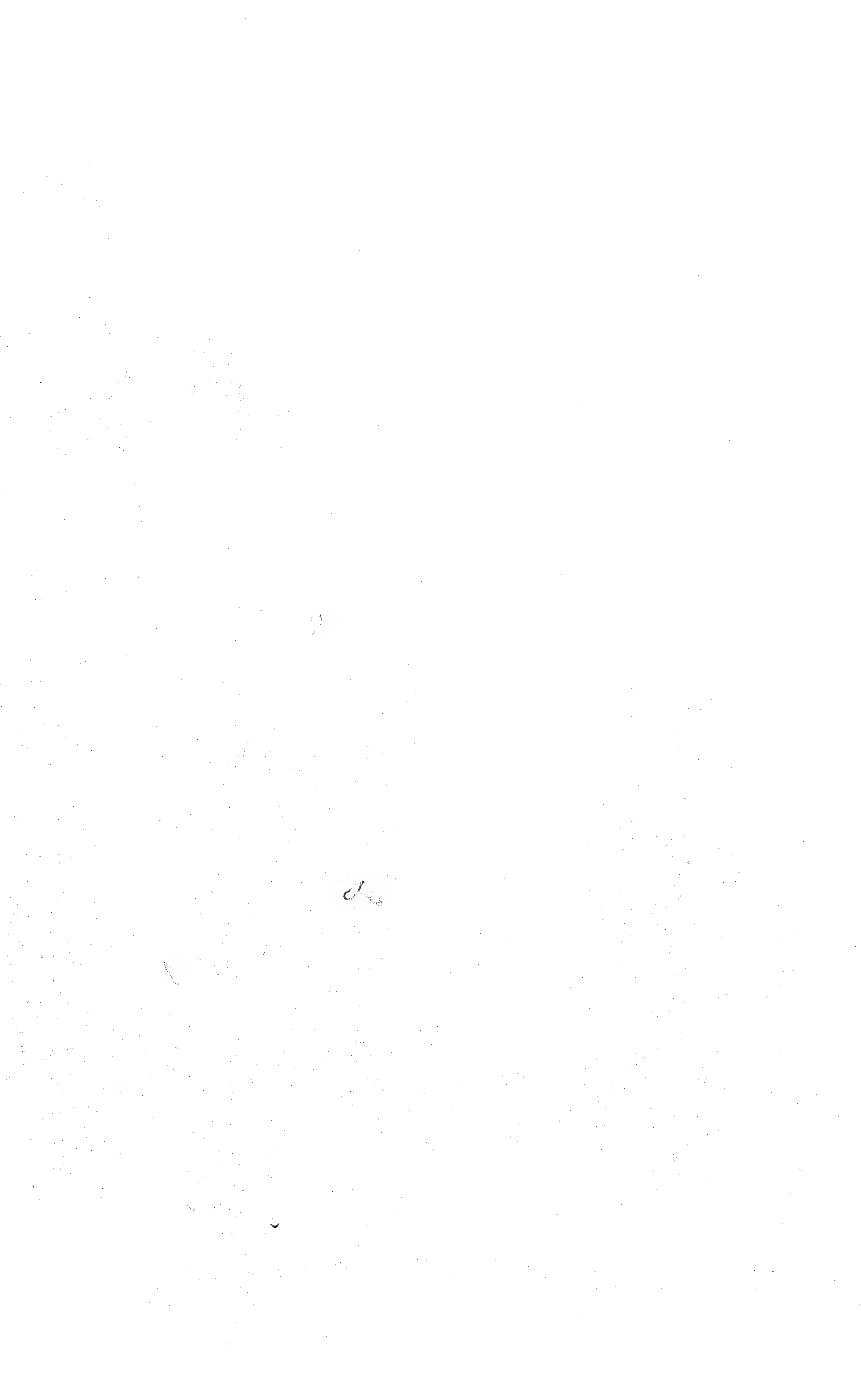
(١) سر الفصاحة ص ١٨٣ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥٤ .

فى إيرادها معدود فى جملة التكرار ، ويجب التوسط فيه فإن لكل شىء حداً ومقداراً لا يحسن تجاوزه ، ولا يحمد تعديه »[١].

ومن الملاحظ أن كل هذه الشروط التى وضعها ابن سنان فى فصاحة الكلام جمعها المتأخرون من البلاغيين فى قولهم « إن فصاحة الكلام أن يخلو من التعقيد اللفظى والمعنوى ، وضعف التأليف ، ومخالفة القياس النحوى ، ومن تنافر الكلمات مع فصاحة المفردات .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٤ .



# مدار البلاغة

## على مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إن فكرة . . مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . فكرة قديمة . صورها أفلاطون فى بعض محاوراته ، وفصل الحديث فيها أرسطاليس فى كتابه « الخطابة »[1] ، والمظنون أن هذا الكتاب لم يترجم إلى العربية إلا بعد منتصف القرن الثالث . . بينما نجد الفكرة تدور بين المتكلمين فى تاريخ أقدم من ذلك . ومن هنا كنا نرجح أنهم لم يقرءوها مباشرة فى آثار يونانية مترجمة ، وإنما سمعوها من المسيحيين والسريان الذين كانوا يجادلونهم . وربما لم تأتهم من هذا الطريق بل أتتهم من طريق الفرس المتأثرين بالثقافة اليونانية ، على كل حال نحن نجد هذه الفكرة تجرى على ألسنة المتكلمين منذ القرن الثالث للهجرة ، وفى « البيان والتبيين » صحيفة تنسب إلى بشر بن المعتمر المتكلم ، وفيها يطالب من يريد الكلام أن يلاحظ نفسه ، فلا يتكلم إلا فى ساعة نشاطه ، وفراغ باله ، ثم يلاحظ كلامه فلا يأتى منه إلا بما يروق السامع ، وينصحه أن يتحاشى التوعر ، وأن يلائم بين ألفاظه ومعانيه فمن طلب معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . . وواضح أن بشرا يطلب من الخطيب أن لا يقول كلاما إلا وهو متهيء له ، وإذا قاله وجب أن يعنى به ، فيحبر فى لفظه ، ويتأنق فى قوله ، ويلائم بين ذلك وبين الموضوع والمعانى التى يتحدث فيها ، ولا بد من ملاحظة ظروف السامعين فلكل مقام مقال .

---

(١) النقد ( الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف ١٩٥٤ ) ص ٤٨ .

ومعنى ذلك أنه لا يكفى للخطيب أن يلاحظ نفسه ولفظه وموضوعه فقط بل لا بد أن يلاحظ من يوجه إليه الكلام ، المتلقى ، هل هو من الخاصة أم من العامة ؟ حتى يصل إلى ما يريد من الإفهام والتأثير فى سامعيه . وصحيفة بشر كلها على هذا النحو تطبيق وتفسير لفكرة أو نظرية ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، التى أذاعها أفلاطون وشرحها من بعده أرسططاليس .

وأكثر الجاحظ فى بيانه من الحديث عن هذه النظرية فمن حين إلى حين يشير أن للكلام طبقات تختلف باختلاف السامعين وطبقاتهم ، ويردد ذلك فى (الحيوان) وفى رسائله المختلفة من مثل قوله : « أن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد أو حرفة أو صناعة ضربا من اللفظ ، هو حقه ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه »[1] .

ويقول : « ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى الألفاظ أميل ، وإليها أحن ، وبها أشغف[2] » .

وفى كل مكان من « البيان » نجد الإشارة إلى هذه النظرية وكيف ينبغى أن يفرق المتكلم بين الخاصة والعامة ، والسوقة ومن فوقهم ، فالناس يختلفون فى ذكائهم وفى استعدادهم للفهم والتأثر وفى طبائع نفوسهم ، وعلى الخطيب أن يلائم بين نفسه وموضوعه وبينهم ، حتى يحقق ما يريد من ظفر ونجاح عندهم .

وقد تكلم قدامة بن جعفر عن نظرية « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » عندما قسم المدائح بحسب من توجه إليهم من الخلفاء والولاة ومن الوزراء والكتاب

---

(١) النقد ، ص٤٩

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

ومن القواد ومن السوقة ، ومن أهل البادية والحاضرة مبينا ما ينبغى أن يورده الشاعر فى كل قسم من المعانى ، وهو فى ذلك يتأثر بأرسطو[١] فى حديثه المسهب بكتابه الخطابة عما ينبغى للخطيب من ملاحظة مستمعيه ، وأن يلائم بينهم وبين كلامه .

وقد ذهب قدامة بن جعفر إلى أن المدح بالحسن والجمال . والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ، ولا ذم على الصحة ، ويخطىء كل من يمدح بهذا ويذم بذاك . ويستدل بإنكار عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيات قوله فيه[٢] .

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقوله له : تقول فىّ هذا وتقول لمصعب :

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وقد أنكر هذا المذهب على قدامة ، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى وقال : إنه خالف فيه مذاهب الأمم كلها . عربيها وأعجميها ، لأن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ويتيمن به ، ويدل على الخصال المحمودة .

ويقول ابن سنان :[٣] « ومن الصحة صحة الأوصاف فى الأغراض ، وهو أن يمدح الإنسان بما يليق به ، ولا ينفر عنه ، فيمدح الخليفة بتأييد الدين ، وتقوية أمره ، ومحبة الناس وطاعتهم ، والتقى والورع ، والرحمة ، والرأفة ، وإقامة العدل وشرف الحسب ، وحسن السياسة والتدبير والاضطلاع بالأمور ، والحلم والعفو ، والعلم وحفظ الشرع ، والجمال والبهاء ، والهيبة والشجاعة ، وكرم الأخلاق ولينها ، وما يجرى هذا المجرى » .

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ( تحقيق كمال مصطفى نشر مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣ ) ص ٨٨ وأنظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٥

(٢) نقد الشعر ص ٢١٤ انظر سر الفصاحة ص ٣١٢

(٣) سر الفصاحة ص ٣٠١

ويُمدح الوزير والكاتب بالعقل والحلم ، وسداد الرأى ، وحسن التدبير والبلاغة ، وتثمير الأموال ، والعدل والكرم ، وما يليق بهذا ، ويمدح الأمير وقائد الجيش بالشجاعة والمعرفة بالحرب، وحسن النقيبة والظفر والصبر وسداد التدبير ، وما أشبه ذلك . وعلى هذا السبيل يجرى الأمر فى النسيب ، فيذكر فيه صدق الهوى والمحبة وشدة الوجد والصبابة ،وكتمان الأسرار ،ومخالفة العذال، وما يتفرع عن ذلك ويلحق به ، وكذلك فى كل غرض من الأغراض الشعرية، من هجاء وفخر وعتاب ووصف وغير ذلك ، حتى يكون كل شىء موضوعا فى المكان الذى يليق به » .

« فأما النثر[1] فيجرى على هذا المنهاج ويحتاج فيه إلى معرفة المواضعات فى الخطاب والاصطلاحات ، فإن للكتب السلطانية من الطريقة مالا يستعمل فى الاخوانيات . وللتوقيعات من الأساليب مالا يحسن فى التقاليد ، وهذا الباب — أعنى المواضعة والاصطلاح فى الخطاب — يتغير بحسب تغير الأزمنة والدول ، فإن العادة القديمة قد هجرت ورفضت ، واستجد الناس عادة بعد عادة حتى إن الذى يستعمل اليوم فى الكتب غير ما كان يستعمل فى أيام أبى اسحاق الصابى مع قرب زمانه منا ، وإذا كان الأمر على هذا جاريا فليس يصح لنا أن نضع رسوما نوجب اقتفاءها ، لأنا نحن فى هذا الزمان قد غيرنا الرسم المتقدم لمن قبلنا ، وكذلك ربما أجرى الأمر فيما بعدنا » ، وذكر ابن سنان أن أصول الأغراض فى الأوصاف ، والمعانى لاتتبدل ولا تتغير ، فليكن الائتمام بها واقعاً ، والاجتهاد فى جريها على قانون السداد والصواب حاصلا .

ومما هو جدير بالذكر أن صحة الأوصاف فى الأغراض التى تكلم عنها ابن سنان الخفاجى هى نفسها فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ويتابع ابن سنان الخفاجى الآمدى فى الرد على قدامة ابن جعفر فى قوله : إن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة فيقول : « هذا الذى ذكره أبو القاسم ( الآمدى ) صحيح

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٠٢

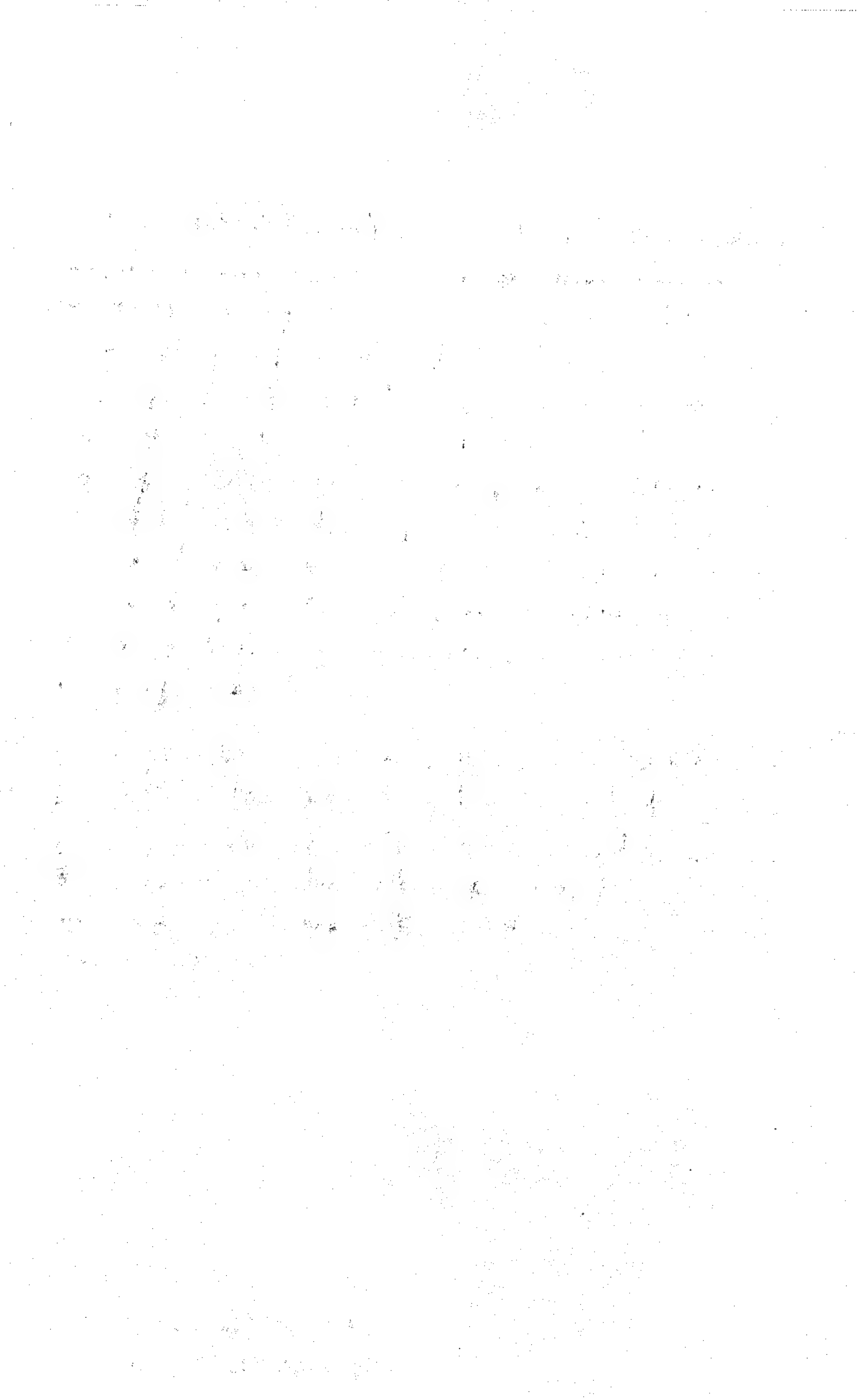
ولو لم يكن فى ذلك إلا ما قد جبلت النفوس عليه من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى وأغنى ، فان كان قدامة يعتقد أن ذاك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق عليه فهذا حكم جميع الفضائل النفسانية ، فإن الكريم قد خلق كريما ، والشجاع شجاعا ، والعاقل عاقلا ، وكما لايقدر القبيح الوجه على أن يستبدل صورة غير صورته ، كذلك لايقدر الجاهل على أن يستفيد عقلا فوق عقله ، ويلزم قدامة ألا يجيز المدح بشرف النفس والنسب وكرم الأصل ، لأن ذلك أيضاً يجرى مجرى الصور ولا صنيع للممدوح فى شىء منها ، والأمر فى هذا ظاهر ، فأما إنكار عبد الملك على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج فإنما أنكره لأن التيجان كانت من زى ملوك العجم ، ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها ، فقال له : تمدحنى كما تمدح ملوك الأعاجم ، وتمدح مصعباً كما تمدح الخلفاء ؛ والأمر على ما قال عبد الملك ، لأن مدح الخليفة بأنه شهاب من الله تعالى أبلغ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه[١] .

ويدخل فى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ما ذكره ابن سنان من أنه يحسن أن لا يضمن الشاعر شعره ، ولا كاتب الرسائل رسائله ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين وصناعتهم ، لأنهما بذلك يخرجان على مقتضى الحال ومن يخاطبانهم من أوساط الناس والحكام والوزراء ، وقديما أوصى بشر بن المعتمر المتكلمين ألا يوردوا مصطلحاتهم الكلامية فى خطاباتهم وعند اضرابهم العامة[٢] .

---

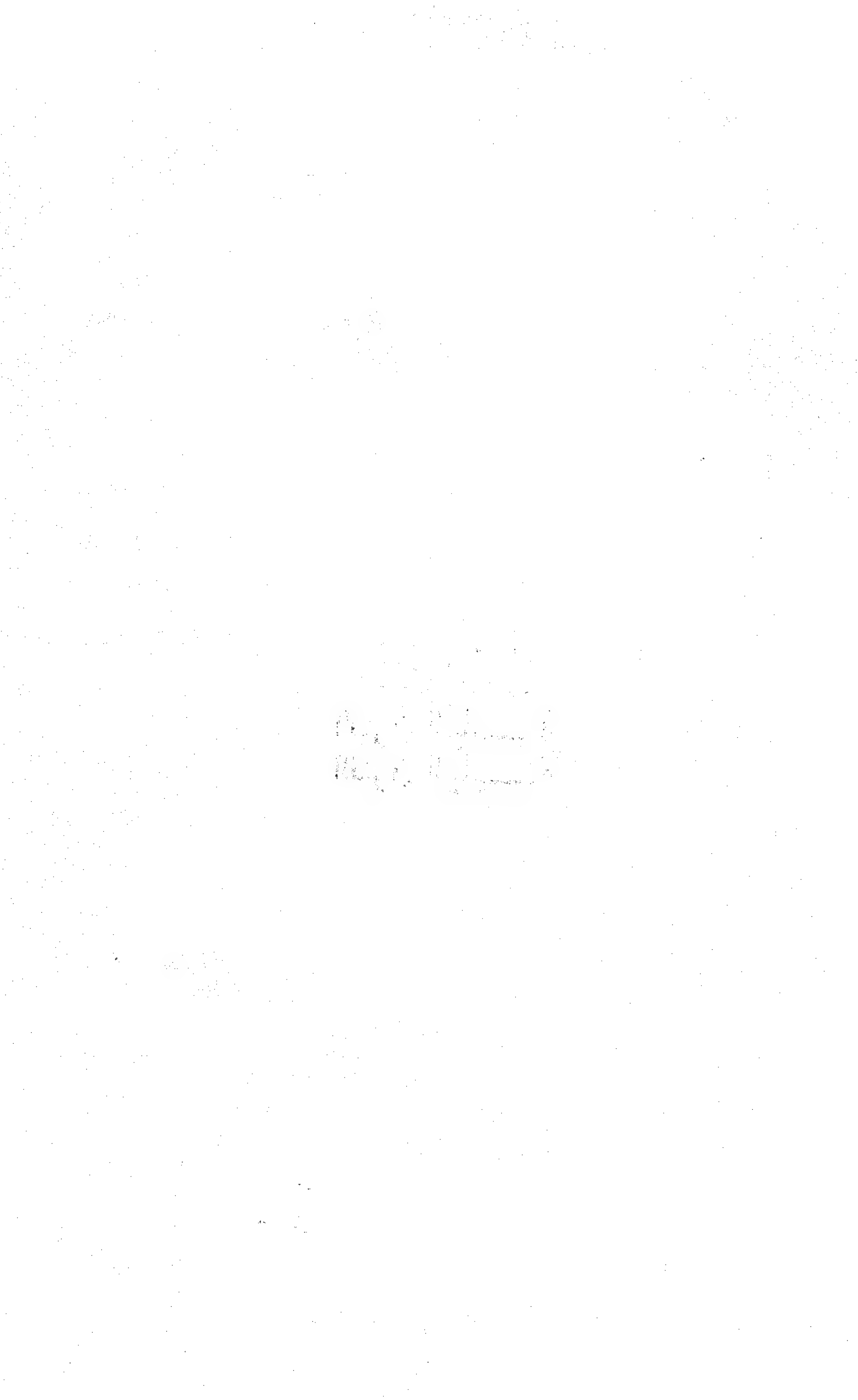
(١) سر الفصاحة ص ٣١٢ — ٣١٣

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٥ .



# الفصل الثالث

## الفنون البيانيـــة



علم البيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد به
الدلالة عليه ، وهذا العلم وضع نظريته لأول مرة فى تا
الجرجانى فى كتابه (أسرار البلاغة) ، وإن كان قد سب
فى مسائله البلاغيون السابقون ، غير أنهم لم يحرروها
نحو ما بحثها وحررها عبد القاهر فى كتابه ( أسرار الب
وفروعها ، وحلل أمثلتها تحليلا بارعاً فى نحو أربعمائة

ومن المؤكد أنه حين خص هذا الكتاب بمباحث
وضع هذا الاسم علما عليها ، إذ كان يسمى مباحثه
البيان تارة ، وعلم الفصاحة تارة ثانية ، ولا نكاد
نجده يشير الى أن الاستعارة من البديع ، وكأنه كان
باسم البديع والمعانى والبيان إنما كان يعرض لعلم و
وخصائص التعبير الجمالية ، ويقترن كلمة البلاغة إلى
لكتابه . وهو فى كتابه الدلائل يقرن الفصاحة دائما
واحداً وفى ذلك كله ما يدل على أنه لم يكن يتمثل
التى استقل بها عند الزمخشرى ومن خلفوه ، وربما
ذلك أنه رآه فى مقدمة الكتاب ينوه بالبيان مقصد
« الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وم
البيان لا تعود إلى اللفظ من حيث اللفظ ، وإنما تعو
وفق ترتيب معانيه فى النفس ، وهو استهلال لمباحثه
بيان الفروق الدقيقة فى التركيب ، غير أنه لا
ما اتسع بها فى الدلائل ، إذ حصرها فى الصور الب

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩٠

البديع طالما أشار سابقوه إلى أن جمالهما حسي- لفظي ، وتدل مباحثه فيهما وفي الصور البيانية جميعا على أنه صنف كتابه هذا بعد الدلائل . وقد قسم البلاغيون علم البيان إلى مباحث هي :

١ ــ التشبيه .

٢ ــ المجاز والاستعارة .

٣ ــ الكناية .

---

# التشبيه

يقول ابن سنان الخفاجي : « التشبيه هو أن يقال أن أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه ، حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة . لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال ، وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضد حتى يكون رديء التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به »(1) .

ونراه حين يعرض التشبيه يقف بإزاء التشبيه البليغ في مثل : ( محمد أسد ) ، وما يلبث أن يأخذ برأى على بن عبد العزيز الجرجاني الذاهب إلى أن مثل هذا التعبير يعد تشبيها بليغا بينا كان يذهب بعض سابقيه إلى أنه استعارة ، وفي ذلك يقول الجرجاني ( ربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس :

والحبُّ ظهرٌ أنت راكبه ... فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء(2) .

وقد تحدث ابن سنان عن حسن التشبيه قائلا : « والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد ، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد ، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه ، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة(3) » واستشهد على ذلك

---

(1) سر الفصاحة ص ٢٩٠ .
(2) الوساطة ( طبعة الحلبي ) ص ٤١ .
(3) سر الفصاحة ص ٢٩٠ .

بقوله تعالى : ( مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد[١] .)

وواضح أنه يتأثر بالرمانى فيما ذهب إليه من أن حسن التشبيه إنما يرجع إلى تشبيه الخفى بالظاهر المحسوس . فقد عرف الرمانى التشبيه بأنه[٢] « العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل » وبذلك قسم الرمانى التشبيه إلى حسى وعقلى : وسمى الأول تشبيه حقيقة ، والثانى تشبيه بلاغة ، وعرض بالتفصيل للتشبيه العقلى وطبقاته فى الحسن ، وقال إنه يأتى على وجوه ، منها إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه كتشبيه أعمال الكفار بالسراب فى الآية الكريمة ( والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا )[٣] .

ومنها إخراج مالم تجر به عادة إلى ماجرت به عادة ، كتشبيه ارتفاع الجبل بارتفاع الظلة فى الآية الكريمة ( وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ) . ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة مثل : ( وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ) . ومنها إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة مثل : ( خلق الإنسان من صلصال كالفخار ) .

وقد استشهد ابن سنان بالآيات السابقة التى استشهد بها الرمانى وقال: «وهذه التشبيهات كلها على مابيناه من تشبيه الخفى بالظاهر المحسوس ، والذى لا يعتاد بالمعتاد ، لما فى ذلك من البيان ، إلا قوله تبارك وتعالى: « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » فإنه شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة[٤] » .

ويرى ابن سنان أن مما يحتاج إليه التشبيه أن يكون الأمر المشبه به واقعاً

(١) سورة إبراهيم ( آية ١٨ )

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٠ — ٨٢

(٣) سورة النور ( آية ٣٩ )

(٤) سر الفصاحة ص ٢٩١

مشاهداً معروفا غير مستنكر »[1] ليوافق ذلك المقصود بالتشبيه والتمثيل من الإيضاح والبيان .

والتشبيه أركان أربعة هى: طرفاه ( المشبه والمشبه به ) ووجهه ، وأداته .

وقد تحدث ابن سنان عن حروف التشبيه فقال هى الكاف وكأن وما جرى مجراهما ، وذكر عدة شواهد عن التشبيه باستعمال حرف التشبيه ، وبدون استعماله ومن الأمثلة التى ذكرها عن التشبيه بغير حرف التشبيه قول امرىء القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها    سمو حباب الماء حالا على حال[2]

إلا أننا نرى ابن سنان يثير قضية كون المشبه به واضحا أبين من الشىء الذى يشبه فيقول : « فإن قيل[3] : قد مضى فى كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون معروفا واضحا أبين من الشىء الذى يشبه ، فما تقولون فى قوله تعالى فى شجرة الزقوم : ( إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ) ورؤوس الشياطين غير مشاهدة ؟ قيل إن الزقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة ، إلا أنه قد استقر فى نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ، كما استقر فى نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد ، حتى إنهم إذا شبهوا وجهاً بوجه الحور كان تشبيها صحيحا ، وإن كانت الحور لم تشاهد ، ولم تستقر فى نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر فى نفوسهم قبح رؤوس الشياطين فكأن المشبه به أوضح وفى رؤوس الشياطين أيضاً من المبالغة فى القبح ما ليس فى طلع الزقوم .

وقد قيل فى بعض التفاسير أن الشياطين هنا الحيات . وعلى هذا القول يسقط السؤال لأن الحيات مشاهدة .

ويذكر ابن سنان عدة شواهد على التشبيه الجيد فى نظره ومنها قول عنترة :

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٩٨ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٩٧ — وعلى بمعنى بعد . والمعنى أنه مشى إليها فى لطف حتى لا يشعر به أحد .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم[1]

ومن التشبيه الردىء عنده قول المرار :

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر فى دعجاء باد دجونها[2]

لأن الخدود بيض ، والمتعارف أن يكون الخال أسود ، فتشبيه الخدود بالليل والخال بضوء البدر تشبيه ناقض للعادة .

والتشبيه من أهم المباحث التى توسع فى الكلام عنها ابن طبا طبا العلوى ، وهو يعد أهم مبحث فى كتابه ( عيار الشعر ) يتصل بالبلاغة وتطور البحث فى مسائلها ، وقد حاول أن يستقصى وجوهه وأقسامه ، وأول وجه أو قسم وقف عنده تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة كقول امرىء القيس[3] .

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وثانى الوجوه والأقسام تشبيه الشىء بالشىء لوناً وصورة وكتشبيه الثغر بالأقحوان إذ لونهما وصورتهما سواء . والوجه أو القسم الثالث تشبيه الشىء بالشىء صورة ولونا وحركة وهيئة، كقول القائل : « الشمس كالمرآة فى كف الأشل » ورابع الوجوه أو الأقسام تشبيه الشىء بالشىء حركة وهيئة كقول الأعشى متغزلا :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

وخامس الوجوه أو الأقسام تشبيه الشىء بالشىء معنى لا صورة كتشبيه الجواد بالبحر والشجاع بالأسد ، والماضى فى الأمور بالسيف ، ومن الوجوه والأقسام تشبيه الشىء بالشىء حركة وبطئا وسرعة كقول امرىء القيس فى وصف فرسه :

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٣) عيار الشعر ( المكتبة التجارية سنة ١٩٥٦ ) ص ١٨ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٤ .

مكر مفر مقبل مدبر معاً    كجلمود صخر حطه السيل من عل

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لوناً كتشبيه الخمر بدم الذبيح. والليل بلون الغراب ومنها تشبيه الشيء بالشيء صوتاً كتشبيه صوت النبل فى الحروب بنواح الثكلى، ولاحظ ابن طبا طبا ملاحظة دقيقة هى أن أداة التشبيه. الكاف وكأن ومثل وتراه ويكاد وتخاله. ويتحدث فى موضع آخر عن التشبيهات المعيبة، إما لشدة الغلو فيها أو لتشبيه كبير بصغير كتشبيه السهام بأعناق الظباء أو لنبو التشبيه عن الذوق، ونوه بالتشبيهات الغريبة البديعة من مثل قول مسلم بن الوليد.

وإنى وإسماعيل يوم فراقه    لكالغمد يوم الروع زايله النصل

فإن أغش قوما بعده أو أزرهم    فكالوحش يدنيها من الانس المحل[1]

وربما كان هذا المبحث أهم مباحثه فى كتابه. فقد فصل القول فى التشبيه وخاصه فى التشبيه الحسى وعرض لرائعه ومعيبه.

ولم يغفل ابن سنان الكلام عن التمثيل فيقول: [2] ومن نعوت الفصاحة والبلاغة أن يراد معنى فيوضع بألفاظ تدل على معنى آخر وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود، وسبب حسن هذا مع ما يكون فيه من الإيجاز أن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة. وهذه فائدة التمثيل فى جميع العلوم لأن المثال لابد من أن يكون أظهر من الممثل، فالغرض بإيراده إيضاح المعنى وبيانه

ومن هذا الفن قول الرماح بن ميادة:

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى    فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

فأراد — إنى كنت عندك مقدما فلا تؤخرنى، ومقربا فلا تبعدنى، فعدل فى العبارة عن ذلك إلى. أنى كنت فى يمينك، فلا تجعلنى فى شمالك، لأن هذا المثال أظهر إلى الحس. ومن أمثلة ذلك فى النثر ما كتب به الوليد بن يزيد لما بويع إلى مروان بن محمد وقد بلغه توقفه عن البيعة له: [3] « أما بعد فإنى أراك

---

(١) المحل: الجدب.

(٢) سر الفصاحة ص ٢٧٣.

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٤.

تقدم رجلا وتؤخر أخرى . فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت
والسلام . » فعبر عن مراده بمثال أوضحه وأوجزه .

وإذا كنا قد تكلمنا عن التشبيه وأركانه وأدواته وتشبيه التمثيل ، أذكر
أن القدماء كانوا ينظرون إلى التشبيه على أنه نوع من الإقناع ، فالمتكلم عنده
فكرة أو قضية عامة غير ظاهرة ، أو غير مألوفة ، فهو يسوقها مجردة ثم يعقب
بتشبيه يوضحها ، بحيث تقبل النفس ، والتشبيه فى هذه الحالة يقوم بغرض خطابى
أو تعليمى أو خطابى تعليمى فى وقت واحد ، وهذا وإن كان مما لا ينكر
أن البلاغيين التفتوا إلى التأثير الوجدانى للتشبيه .

إلا أن فى تقسيمهم للتشبيه نوعا من الآلية ، أو الشكلية فى النظر إلى التشبيه
فالتشبيه يقسم كما تقسم الجملة فى النحو ، ولسنا بحاجة إلى ذلك فى واقع الأمر
إذا كنا ندرس التشبيه من حيث قيمته البلاغية .

# المجاز والاستعارة

## المجـــاز :

يقسم ابن سنان الكلام المفيد إلى قسمين : حقيقة ومجاز .. فاللفظ الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد ما وضع لإفادته ، والمجاز هو اللفظ الذى أريد به مالم يوضع لإفادته(١).

ولعل هذه أول مرة وضع فيها تعريف واضح للحقيقة والمجاز ، وإن كان هذا التعريف موجوداً منذ الجاحظ إلا أنه كان فيه خلط كبير فقد جعل الاستعارة من باب المجاز . كما تراه يدخل الاستعارة التمثيلية هى الأخرى فى المجاز إذ يقول : « ونار تأتى عن طريق المثل لا على طريق الحقيقة »(٢) .

نحو قول ابن ميادة :

ونار اه نار نار كل مدفع(٣) وأخرى يصيب المجرمين سعيرها

واستعماله لكلمتى الحقيقة والمجاز فى (الحيوان) يدخل فى استعمال البلاغيين المتأخرين فقد استعملهما بمعناهما الدقيق ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن ابن تيمية(٤) أخطأه التوفيق حين زعم أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة . أما ما رجحه من أن حدوث هذا التقسيم كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فهو صحيح إلى أبعد غاية »(٥) .

ونرى ابن رشيق يستهل حديثه عن فنون البديع بالمجاز ويذكر بعض حديث ابن قتيبه عنه وهو إنما أراد به طرق القول التى تحتاج شيئاً من التأويل ، ويؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة ولا يلبث أن يقول إن البلاغيين خصوا به بابا بعينه

---

(١) سر الفصاحة ص ٤٠ .
(٢) الحيوان ٥ / ١٣٣ .
(٣) المكل : من يعوله غيره ، والمدفع : الفقير المهين .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٦ .
(٥) كتاب الإيمان ( لابن تيميه ) ص ٣١ .

وذلك أن يسمى الشيء باسم ماقاربه أو كان منه بسبب ، ويذكر من أمثلته قول الشاعر[1]:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

إذ أراد بالسماء المطر لقربه من السماء ، وقال رعيناه ، والمطر لايرعى ، ولكنه أراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز ويذكر منه :( واسأل القرية) أى أهلها ، ومثل : ( ليلة ساهرة ) على المجاز أى ليلة يسهر فيها الناس .

وأدخل البلاغيون المتأخرون المثالين الأولين فى باب المجاز المرسل والمثال الثالث فى المجاز العقلى ، على أن الباب لم يتضح فى نفس ابن رشيق فقد أدخل فيه أمثلة من الاستعارة والتشبيه والكناية . ومعروف أن البلاغيين جعلوا المجاز علما على الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والمجاز العقلى ، وأخرجوا التشبيه لأن ركنيه وهما المشبه والمشبه به حقيقيان ، ولكن على كل حال فهذه أول نظرة دقيقة للباب فقد كانت كلمة المجاز تلقانا قبله منذ الجاحظ . دون تحديد دقيق لما تصدق عليه من البيان .

ولقد عرف عبد القاهر الحقيقة فى المفرد بأنها كل كلمة أريد بها ماوقعت له فى وضع واضع ، وإن شئت قلت : فى مواضعه — وقوعا لايستند فيه إلى غيره[2].

مثال ذلك كلمة ( الأسد ) تريد به ( السبع ) فإنك قد أردت به ماوضعه الواضع لهذه الكلمة ، وهو الحيوان المفترس ، ولا يحتاج أن يتصور له معنى أصلى ينتقل منه إلى (السبع) من أجل صلة تجمع بينهما .

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ماوقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول ، وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ماوقعت له فى وضع الواضع إلى ملم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ماتجوز بها اليه ، وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها[3].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٨ .

(٢) أسرار البلاغة ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢/١ .

مثال ذلك كلمة ( الأسد ) تريد بها رجلا شبيها بالأسد ، فأنت تجوز بهذه الكلمة ماوضعت له الكلمة ، وهو الحيوان المفترس إلى مالم توضع له ، وهو الرجل الشجاع لملاحظة صفة تجمع بين المراد بها الآن ، وهو الرجل الشجاع ، وما وضعت له الكلمة وهو الحيوان المفترس ، وتلك الملاحظة هي الشجاعة التي تجمع بينهما .

وقد قسم عبد القاهر المجاز إلى : مجاز عقلي ، ومجاز لغوى وله فصل مطول رائع في التفريق بينهما[1] .

ومن عرضنا لبعض آراء البلاغيين في الحقيقة والمجاز يتضح لنا أن أدق تعريف وأوضحه هو تعريف ابن سنان لهما . إذ يقول : « إن من وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فهمه . وهذه الجملة تحتاج إلى تفصيل ونحن نذكره ونشرحه ونبين أمثلته ليقع فهمه والعلم به »[2] .

وعلى الرغم من أن ابن سنان صرح بأنه سيتناول الكلام بشيء من التفصيل والشرح وذكر أمثلة للحقيقة والمجاز حتى يسهل فهمها إلا أنه لم يفعل .. ولم يتكلم عن الحقيقة والمجاز إلا بضعة سطور في ( ص ٤٠ ) وأربعة سطور في ( ص ١٣٤ ) ذكر فيهما التعريف والفرق بين الحقيقة والمجاز .

## الاستعارة :

يقول ابن سنان : «[3] ومن وضع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة ، وقد حدها أبو الحسن علي بن عيسى الرماني فقال : هي تعليق العبارة على غير ماوضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل ( واشتعل الرأس شيباً ) استعارة لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه لأن الشيب لما كان يأخذ

---

(١) أسرار البلاغة ص ١/٣٣٣ ومابعدها .

(٢) سر الفصاحة ص ١٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٤ .

فى الرأس ويسرى فيه شيئا فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب ، وتسرى حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة . فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان ، ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها ، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع وليس يخفى على المتأمل أن قوله عز وجل ( واشتعل الرأس شيباً ) أبلغ من — كثر شيب الرأس ، وهو حقيقة هذا المعنى ، وقول امرىء القيس ( قيد الأوابد ) أبلغ من — منع الأوابد عن جريها . والأصل فى ذلك ماأفاده التشبيه فى الاستعارة من البيان » .

ثم يقول : « إن هذا الفن(١) ( الاستعارة ) قد أورده المحدثون كثيراً ، وإن كان المتقدمون بدأوا به ، وممن أكثر استعماله أبو تمام حبيب بن أوس فأورد منه فى شعره الجيد المحمود ، والردىء الذى هو الغاية فى القبح . وسأذكر فى شعره خاصة مايستدل به على ذلك » .

وقد خرج على بن عيسى ماورد فى القرآن من الاستعارة فكان من ذلك قوله تعالى : ( وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ) ، لأن حقيقته عمدنا لكن ( قدمنا ) أبلغ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم يقدم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم على خلاف ماأمرهم به ، وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال . وقوله تعالى : ( إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية )(٢) لأن حقيقة ( طغى ) علا ، والاستعارة أبلغ ، لأن — طغى - علا قاهرا . وكذلك : ( بريح صرصر عاتية ) لأن حقيقة — عاتية — شديدة ، والعتو أبلغ لأنه شدة فيها تمرد .

ويستشهد ابن سنان بقول طفيل الغنوى :

وجعلت كورى فوق ناجية   يقتات شحم سنامها الرحل(٣)

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ وانظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) الكور : رحل البعير ، والناجية : الناقة السريعة .

ويذكر أن استعارة هذا البيت مرضية عند جماعة العلماء بالشعر، لأن الشحم لما كان من الأشياء التى تقتات ،وكان الرحل يتخونه ، ويذيبه ، كان ذلك بمنزلة من يقتاته ، وحسنت استعارته القوت للقرب والمناسبة والشبه الواضح .

ثم يذكر ماقاله أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفع(١)

ويعلق عليه بقوله : « ليس هذا من أحسن الاستعارات ولا أقبحها ، بل هو وسط ، وإن كان إلى الاختيار أقرب . لما جرت به العادة من قولهم : علقت به المنية . ونشبت ، وما أشبه ذلك ، ولأجل كثرة هذا حسن . ولأنه مبنى على غيره لم أجعله من أبلغ الاستعارات » .

ويعرض الآمدى لطائفة من الاستعارات القبيحة عند أبى تمام ، ويرجع قبحها إلى كثرة مافيها من تشخيص على قوله(٢) :

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقولـــه :

تروح علينا كل يوم وتغتدى خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقوله يرثى غلاما :

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله فى الركاب

وربما كان ابن المعتز أول من وجه نقاد أبى تمام إلى هذا الجانب من شعره(٣) إذ رآه يكثر من الاستعارات المكنية ويغرب فيها إغراباً لم يعرف لشاعر من قبله ، والآمدى يعلل لموقف النقاد منه فيقول : « إنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له

---

(١) سر الفصاحة ص ١٤٢ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠ .

(٣) انظر كتاب البديع ص ٢٤ وترجمة أبى تمام فى كتاب الموشح للمرزبانى ص ٤٦١ وما بعدها

وملائمة لمعناه[١]، وهو مخطىء فى هذه القاعدة التى وضعها للاستعارة ذلك أنه أدخل فى حيز الاستعارة ماسماه العرب بالاستعارة المكنية ، وكان أرسطو يسميه « وضع الشيء تحت العين » أى بث الحياة والحركة فيه ، وتسميه البلاغة الغربية الحديثة باسم التشخيص[٢]. وهو ينفصل عن الاستعارة القائمة على التشبيه إذ هو جعل وخلق وتجسيد ونقل لعناصر الطبيعة وللمعانى من عالمها إلى العالم الحى المتحرك .

وإذا كنا قد لاحظنا صلة ابن سنان فى مبحث التشبيه بالرمانى ، فإن هذه الصلة تزداد اتضاحا فى مبحث الاستعارة ، إذ لايزال يستمد منه تارة ، وتارة يراجعه ويناقشه . ومن ذلك ماذهب إليه الرمانى من أن التشبيه فى الكلام تصحبه دائماً أداة التشبيه ، وهو يعنى كأن والكاف ، وماجرى مجراهما . فقد علق على ذلك ابن سنان بقوله : « وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ، ويكون حسنا مختارا ، ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه »[٣].

والفرق واضح بين الاستعارة والتشبيه[٣]، فالاستعارة لايذكر فيها إلا أحد طرفى التشبيه ، أما التشبيه فيذكر فيه المشبه والمشبه به معاً ، مما يجعل الشبه والحديث عنه واضحا ، أما فى الاستعارة فيكون مضمراً ، وكون التشبيه مكنونا فى الضمير هو أحد الفروق بين التشبيه والاستعارة ، وليس معنى هذا أن يكون التشبيه فى الاستعارة غامضاً بل معناه أن يتوصل إليه بعد إعمال فكر .

ولا بد للاستعارة من حقيقة هى أصلها ، وأركانها : مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له ، فالمستعار لفظ الاشتعال فى مثل : « واشتعل رأسه شيباً »

---

(١) الموازنة بين الطائيين للآمدى ( طبع الجوائب ) ص ١٠٧ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠ ، وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الرابعة ) ص ٢٣٥ ومابعدها .

(٣) سر الفصاحة ص ١٣٥ :

(٤) المرجع السابق ص ١٣٥ — ١٣٦ .

والنار مستعار منه ، والشيب مستطار له . ويقول ابن سنان . « إن للاستعارة تأثيراً فى الفصاحة ظاهرا ، وعلقة وكيدة ، والبعيد منها يقضى باطراح الكلام ، ويذهب طلاوته ورونقه ، ولأجل هذا احتاج إلى إيضاحها ، ووصف مايحسن منها ويقبح ، والاكثار من الأمثلة التى تدل على ماأريده » .

وقد قسمها إلى قسمين « قريب مختار ، وبعيد مطرح : فالقريب المختار ماكان بينه وبين مااستعير له تناسب قوى ، وشبه واضح ، والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده عما استعير له فى الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، والقسمان معاً يشملها وصف بالبعد[1] .

ونجد ابن الأثير فى ( مثله السائر ) يزعم أن ابن سنان خلط تخليطاً واضحاً بين التشبيه وبعض صور الاستعارة فيقول[2] . « ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الأداة . ولم يفرق بينهما ، وتأسى فى ذلك بغيره من علماء البيان كأبى هلال العسكرى ؛ وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ؛ وما أعلم كيف خفى على الآمدى الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة . ويضرب ابن الأثير مثلا لما خلط فيه ابن سنان قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه  وأردف أعجازا وناء بكلكل

يقول ابن الأثير إن هذا البيت من التشبيه المضمر الأداة لأن المستعار له مذكور وهو الليل ؛ ومن الخطأ خلطه بالاستعارة ، ومعروف أن هذا يعد من باب الاستعارة المكنية ، وهى التى يذكر فيها المشبه ويحذف المشبه به مع ذكر لازمة من لوازمه . وكأن ابن الأثير يعد هذه الاستعارة ضربا من التشبيه . ولندعه يعرض المسألة عند الآمدى ويرد على ابن سنان حتى يتضح رأيه - يقول : « إن الآمدى قال فى كتاب الموازنة أن امرأ القيس وصف أحوال

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣٦ .

(٢) المثل السائر ص ٢٣٠ .

الليل الطويل فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره ، وترادف أعجازه ، فلما جعل له وسطاً ممتدا ، وصدرا ثقيلا ، وأعجازا رادفة لوسطه ، استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، واسم الكلكل وجعله نائيا لتثاقله ، واسم العجز من أجل نهوضه ، واعترض عليه ابن سنان قائلا :

« أن هذا الذى ذكره الآمدى ليس بمرض غاية الرضى ( لأن البيت فى رأيه من باب التشبيه لا من باب الاستعارة ) وأن بيت امرىء القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة بل هو وسط ، فإن الآمدى قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا ممتدا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وحيث جعل له آخرا وأولا استعار له عجزا وكلكلا ، وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض ، فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز ، والوسط والتمطى من أجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك . وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى ، هذه حكاية اعتراضه على الآمدى .

ثم يرد ابن الأثير[1] من وجهة نظره على كلام ابن سنان بوجهين :

الوجه الأول :

أنه قال هذا بيت من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيده ولا رديئة ، ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى . وعنده أن الاستعارة المبنيـــة على استعارة من أبعد الاستعارات ، وذلك أنه قسم الاستعارة إلى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح . فإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة مطرحة فكيف جعلها وسطا وهذا تناقض فى القول .

والوجه الثانى :

أنه لم يأخذ على الآمدى موضع الاخذ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره ، وذلك أن حد الاستعارة على ما رآه الآمدى وابن سنان ، هو نقل المعنى من لفظ

---

(١) المثل السائر ص ٢٣١

إلى لفظ يسبب مشاركة بينهما . وأن كان المذهب الصحيح فى حد الاستعارة غير ذلك . ولكنى فى هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجه الكلام على الحكم بينهما فى بيت امرىء القيس .

ويستمر ابن الأثير فى إبطال ما قاله الخفاجى فى الاستعارة إلى أن يقول : « وهذا الكلام الذى أوردته ههنا هو اعتراض على ما ذكره ابن سنان الخفاجى فى الاستعارة ، فلا تظن أنى موافقه فى الأصل ( أى فى أن البيت من باب الاستعارة ) وإنما وافقته قصداً لتبيين وجه الخطأ فى كلامه ، وكيف يسوغ لى موافقته وقد ثبت عندى بالدليل أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له وفيما قدمته من الكلام كفاية » (١) . وناقش ابن سنان الصولى فى بعض تحليلاته لاستعارات أبى تمام . من مثل قوله(٢) .

لا تسقنى ماء الملام فإننى     صب قد استعذبت ماء بكائى

فيقول أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : كيف يعاب أبو تمام إذا قال ماء الملام ؟ وهم يقولون — كلام كثير الماء — وقال يونس بن حبيب فى تقديم الأخطل : « لأنه أكثرهم ماء شعر » ويقولون — ماء الصبابة وماء الهوى — يريدون الدمع . وقال ذو الرمة :

أأن توهمت من خرقاء منزلة     ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقال أيضا :

أداراً بحزوى هجت للعين عبرة     فماء الهوى يرفض أو يترقرق(٣)

وقالوا ماء الشباب — قال أبو العتاهية :

ظبى عليه من الملاحة حلة     ماء الشباب يجول فى وجناته

---

(١) وانظر المثل السائر ص ٢٣١ — ٢٣٢

(٢) أخبار أبى تمام للصولى ( طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ ) ص ٣٣ ومابعدها .

(٣) ديوان أبى تمام ( طبعة القاهرة ) ص ٣٨٩ .

وهو من قول عمر بن أبى ربيعة :

وهى مكنونة تحير منها      فى أديم الخدين ماء الشباب

وبعد أن ذكر الصولى هذه النماذج من الاستعارات قال[١] : « فما يكون إذا استعار أبو تمام من هذا كله حرفا فجاء به فى صدر بيته — لما قال فى آخره — فإنى صب قد استعذبت ماء بكائى — قال فى أوله — لا تسقنى ماء الملام — وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوى معناه ، قال الله عز وجل : ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فالسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ولكنه لما قال ( وجزاء سيئة ) قال سيئة ، حمل اللفظ على اللفظ ، وكذلك : ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ) إنما حمل اللفظ على اللفظ ، فخرج الانتقام بلفظ الذنب . لأن الله عز وجل لا يمكر ، وكذلك ( فبشرهم بعذاب أليم ) لما قال : بشر هؤلاء بالجنة . قال : بشر هؤلاء بالعذاب ، والبشارة إنما تكون فى الخير لا فى الشر » .

وبعد أن أتم الصولى كلامه على هذا النحو نرى ابن سنان يناقشه فيقول : « هذه جملة ما قاله أبو بكر ، وهى غير لائقة بمثله من أهل العلم بالشعر لأن قولهم — كلام كثير الماء ، وماء الشباب ، وقول يونس : أن الأخطل أكثرهم ماء شعر — إنما المراد به الرونق — كما يقال — ثوب له ماء — ويقصد بذلك رونقه ، ولا يحسن أن يقال : ما شربت أعذب من ماء هذا الثوب — كما لا يجمل أن يقال : ما شربت أعذب من ماء هذه القصيدة — لأن هذا القول مخصوص بحقيقة الماء لا بما هو مستعار له ، وأبو تمام بقوله : « لا تسقنى ماء الملام » ذاهب عن الوجه على كل حال ، ثم لا يجوز أن يريد هنا بالماء الرونق ، لأن الملام لا يوصف بذلك ، وإنما يذم ويستقبح ، ولا يحمد ويستحسن ، وأبو تمام القائل[٢] :

عذلا شبيها بالجنون كأنما      قرأت به الورهاء شطر كتاب[٣]

---

(١) سر الفصاحة ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٦٤ .

(٣) الورهاء : الحمقاء . يعنى أنها قرأت شطر كتاب فظلم نصفين .

فبهذا وأمثاله يتمت الملام، لا بالماء الذى هو الرونق والطلاوة فقد بان فساد هذا الاعتذار من هذا النحو.

وأما ماء الصبابة وماء الهوى — فقد بين أبو بكر أنهم يريدون به الدمع، فكيف يقول أنه استعارة؟ والدمع ماء حقيقى بلا خلاف، وعلى أى وجه يحمل ماء الملام فى الاستعارة على ماء الدمع وهو حقيقة؟ وأما مقابلة اللفظ باللفظ واستشهاده بالآيات المذكورة فقد ذكرنا الكلام عليه فيما تقدم، وبينا أن هذا مجاز ولا يقاس عليه، ولا يحسن منا المقابلة فى موضع يعترضنا فيه فساد فى المعنى أو خلل فى اللفظ، كهذه الاستعارة أو ما يجرى مجراها، كما لا يحسن منا غير ذلك فى المجاز، إذ أدى إلى اللبس والإشكال.

وكما ناقش ابن سنان أبا بكر الصولى فى استعاراته نراه يناقش الآمدى: فالآمدى يقول أن قول أبى تمام (لا تسقنى ماء الملام) ليس بعيب عندى لأنه لما أراد أن يقول: قد استعذبت ماء بكائى — جعل للملام ماء ليقابل ماء بماء، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة، فإن الله جل اسمه يقول: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومعلوم أن الثانية ليست بسيئة، وإنما هى جزاء على السيئة، وكذلك: (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) والفعل الثانى ليس بسخرية، ومثل هذا فى الشعر والكلام كثير ومستعمل، فلما كان فى مجرى العادة أن يقول القائل: أغلظت لفلان القول، وجرعته منه كأسا مرة أو سقيته منه أمر من العلقم، وكان الملام مما يستعمل فيه التجرع، جعل له ماء على الاستعارة، وهذا كثير موجود.

فيرد عليه ابن سنان قائلا: «(١) وهذا الذى قاله أبو القاسم عن المقابلة قد ذكرناه، فلا وجه لاعادة الكلام عليه، وأما اعتذاره بأن العادة جارية أن يقال — جرعته من القول كأسا مرة فلما استعمل فى الملام التجرع على الاستعارة جعل له ماء على الاستعارة — فلعمرى إن هذا أقرب ما يعتذر به لأبى تمام فى هذا البيت وأولى من جميع ما قد ذكر، لما قدمناه من فساد التعلق

---

(١) سر الفصاحة ص ١٦٥.

بذلك لكنا قد قدمنا أن الاستعارة إذا بنيت على الأستعارة بعدت وإن اعتبر فيها القرب فما الملام ليس بقريب ، وإن لم يعتبر فيها لم ينحصر ، وبنى على كل استعارة استعارة ، وأدى ذلك الى الاستحالة والفساد على ما قدمناه ».

وهكذا يستمر ابن سنان فى مناقشاته للآمدى فى بعض تحليلاته للاستعارات فى موازنته بين أبى تمام والبحترى . كما يناقش على بن عبد العزيز الجرجانى فى بعض تحليلاته لاستعارات المتنبى[٢] .

(٢) سر الفصاحة ص ١٤٤ .

# الكناية

يقول ابن سنان أن من وضع الألفاظ موضعها الصحيح حسن الكناية عما يوجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح . وذلك أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة ، وإنما قلنـا فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك ، ولا تكون الكناية فيها مرضية ، فإن لكل مقام مقالا ، ولكل غرض فنا وأسلوبا[1] .

ويرى ابن الأثير أن الكناية جزء من الاستعارة ولا تأتى إلا على حكمها خاصة ، لأن الاستعارة لا تكون بحيث يطوى ذكر المكنى عنه ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقـال كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية[2] .

ويذكر ابن سنان الخفاجى أن من نعوت البلاغة والفصاحة « الارداف والتتبيع » وهما ضرب من الكناية مثل : « بعيدة مهوى القرط » كناية عن طول العنق . والاسم الأول وضعه قدامة وجعله من نعوت جودة ائتلاف اللفظ والمعنى ، والارداف هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى ، فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له كقول ابن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فانه أراد أن يصف طول جيدها ، فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بما دل عليه من طول مهوى القرط ، وواضح أن بعد مهواه ردف لطول الجيد.

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٢ .

(٢) المثل السائر ص ٣٨٠ .

ووضع الثانى ( التوابع ) بعض المتأخرين ، واكتفى به ابن رشيق فى القسمية ، وسمى العسكرى الباب باسم « الأرداف والتوابع »[١] .

ويذكر ابن سنان عدة شواعد على ما يستحسن من الكنايات ومنها قول امرىء القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا  ورضت فذلت صعبة أى إذلال

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة[٢] .

« ويقول : روى عن أبى الحسين جعفر بن محمد بن ثوابه : أنه لما أجاب أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله من كتابه بإنفاذ ابنته التى زوجها منه ، قال فى الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها : وأما الوديعة فهى بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك ، عناية بها ، وحياطة لها ، ورعاية لمواتك فيها ، وقال للوزير أبى القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب : والله إن تسميتى اياها بالوديعة نصف البلاغة . واستحسنت هذه الكناية حتى صار الكتاب يعتمدونها » . ثم يقول :[٣] « وكتب أبو اسحاق الصابى عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة الى أبى تغلب بن ناصر الدولة فى إنفاذ ابنته المزوجة منه : وقد توجه أبو النجم الحرمى أيده الله نحوك بالوديعة ، وهو الأمين على ما يحوطه ويحفظه ، والوفى بما يحرسه ويلحظه ، وإنما نقلت من مغرس الى معرس(٤) ، ومن وطن الى سكن ، ومن مأوى بر وانعطاف الى مثوى كرامة وإلطاف ، فأجاب أبو تغلب عن هذا بكتاب من إنشاء أبى الفرج البيغاء ، قال فى جوابه عن هذا الفصل : ووصل أبو النجم بدر الحرمى بالأمانة العظيم قدرها ، والصفوة البيتة نسبها وذكرها . فقال : عوض الوديعة الأمانة ليغاير بين اللفظين » .

ومن الكناية الحسنة عند ابن سنان قول أبى الطيب(٥) :

---

(١) الصناعتين ص ٣٥٠ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٤) المعرس : الموضع الذى يعرس فيه القوم أى ينزلون من السفر ليرتاحوا ثم يسافرون .

(٥) سر الفصاحة ص ١٩٤ .

تدعى ما ادعيت من ألم الشو ... ق إليها والشوق حيث النحول

لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية . ومن الكنايات القبيحة عنده قول الرضى يرثى والدته :

كأن ارتكاضى فى حشاك مسبب ... ركض الغليل عليك فى أحشائى

فالشاعر يريد أن يقول أن ارتكاضه وهو جنين فى بطنها كان سببا لارتكاض غليله فى أحشائه لموتها ويالها من كناية قبيحة . ويقول ابن سنان : إذا قارنا هذا البيت ببيت امرىء القيس السابق ، وجدنا أن امرأ القيس عبر عما يجب أن يكنى عنه من المباضعة . فكنى بأحسن كناية . أما الرضى فعبر عما لا يجب أن يكنى عنه . فأتى بألفاظ يجب يكنى عنها .

ومن عرضنا الكناية عند ابن سنان يتضح لنا أنه قسمها الى قسمين : حسنة وقبيحة . وقد تأثر به ابن الأثير(١) فى هذا التقسيم . وقسمها الى ما يحسن استعماله ، وما يقبح . وقسم الأول إلى التمثل والأرداف المجاورة ، ولكنه عاد وأنكر التقسيم الأخير فى « المثل السائر » . ورأى أنه غير صحيح . لأن شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصلة عن عموم الأصل . واكتفى بتقسيمها الى ما يحسن استعماله ، ومالا يحسن ، ووضح مايراد من التمثيل والارداف والمجاورة .

ولعل هناك تقاربا كبيرا بين ابن سنان وابن الاثير فى حديثهما عن الكناية وتقسيمهما لها .

الا أن البلاغيين المتأخرين أكثروا من التقسيمات المتداخلة للكناية ويخيل الى أن هدفهم من ذلك هو كثرة الأقسام وتعددها وكان حسبهم أن يقولوا إن الكناية قد تكون واضحة ، وقد تكون خفية . وإما حسنة قبيحه بدلا من تلك التقسيمات المنطقية التى لا فائدة منها . وأرى أن نعود إلى تقسيم ابن سنان وابن الأثير ، فنقسمها إلى حسنة وقبيحة ، أو إلى ما يحسن إستعماله وما لا يحسن

---

(١) المثل السائر ٢/١٩٩ ومابعدها ، وانظر الجامع الكبير ص ١٥٦ ومابعدها .

ونضع لها بعض القواعد والأصول ، وبذلك نخلص البلاغة من كثرة التقسيمات، واضطراب المصطلحات وتداخلها واختلاف البلاغيين فيها .

ويجب أن نشير الى أن الكناية لون من ألوان الخيال ووسيلة من وسائل التعبير ، ولعل ما كتبه ابن الأثير فى كتابيه ( الجامع الكبير ، والمثل السائر) عن الكناية ما يغنى ، فقد جعل لهذا الفن روحا ، وبعث فيه حياة . فإذا الكناية صور متحركة ، وإذا الأمثلة توحى بكل بديع عجيب . وليت المتأخرين استفادوا مما كتبه ابن سنان وابن الأثير عن الكناية ، وتركوا ما كتبه السكاكى والقزوينى وراء ظهورهم .

* * *

# الفصل الرابع

# الفنون البديعية والأسلوبية



المعروف أن أول من ألف فى البديع كتابا هو عبد الله بن المعتز ، وكانت غايته منه الرد على الشعوبية ، وبيان أن المحدثين لم ينشئوا البديع إنشاء ، وإنما نموا صوراً منه وجدوها فى كلام العرب وأشعارهم .

ولعل ابن المعتز أحس شيئاً من ذلك فهو يقول : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الإسم ولا يدرون ماهو ، وماجمع فنون البديع ولا سبقنى اليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين ، ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لاينبغى للعالم أن يدعى الاحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق فى المعرفة فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره »[1] .

وقد بنى ابن المعتز كتابه « البديع » على أبواب خمسة هى : الاستعارة — التجنيس — المطابقة — رد أعجاز الكلام على ماتقدمها — والمذهب الكلامى . ولما فرغ من بيان هذه الألوان تحدث عما سماه محاسن الكلام وردها إلى ثلاثة عشر لونا هى[2] الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، وحسن التشبيه ، وحسن الابتداءات ، والإفراط فى الصفة ، وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ماليس له .

وجاء بعده قدامة بن جعفر بكتابة ( نقد الشعر ) فأضاف إلى هذه الألوان

---

(١) البديع لابن المعتز ص ٥٨ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٢ .

ألوانا أخرى أهمها[٣]: صحة الأقسام وصحة المقابلات وائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف القافية مع بقية البيت، والتوشيح والإيغال.

وقد ألف قدامة كتابه هذا محادة لكتاب ابن المعتز، واتهم سابقيه بالخبط والتخبط، وكأنه يريد أن يقول أنهم فقدوا الدليل الهادى من كتابات أرسطو ولذلك قصروا بل تخبطوا وضلوا الطريق، ويظهر أن كتاب ابن المعتز كان يؤذيه، واتهمه بأنه لا يحسن البحث فى البديع ووجوه البلاغة[٤].

ثم خلفهما أبو هلال العسكرى بكتابه «الصناعتين»، فأضاف ألوانا جديدة من البديع ثم يأتى بعد ذلك ابن رشيق بكتابه (العمدة) فيبلغ بهذه الألوان نحو السبعين. ومازال المؤلفون فى النقد والبيان يزيدون فيها ويضيفون حتى أصبحت تسعين لونا عند ابن أبى الأصبع المصرى (المتوفى سنة ٦٥٤ للهجرة).

ولاشك أن هذه الكثرة من الألوان تحمل كثرة من المصطلحات والألقاب وهى متعبة لا للقارىء فحسب، بل لهؤلاء المؤلفين الذين كدوا عقولهم وأجهدوها فى وضع الأسماء والمصطلحات، إذ أخذوا يحاولون التمييز بين صور التعبير وكلما رأوا صيغة جديدة سموها اسما، وكثيراً ماتتشابك الأسماء وصور التعبير التى تدل عليها.

وتحولت المسألة إلى مايشبه السباق[١]، فكل يؤلف فى البديع، وكل يحاول أن يضيف مصطلحا أو لقبا، وتتكاثر الألقاب والمصطلحات وتقفز من حين إلى حين قفزة واسعة، إذ يسجل أحد المتسابقين رقما عاليا، ومازال هذه القفزات والتسجيلات تتوالى حتى يبلغ الرقم مائة وأربعين. ويتفنن المتسابقون فى طريقة عرضهم لمبتكراتهم، أو قل لألعابهم، ولا نلبث أن نجد صفى الدين الحلى (المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة) يؤلف قصيدة فى مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) تجمع ألوان البديع وتضم أنواعه وقد سماها (الكافية البديعية فى المدائح النبوية) ومطلعها:

---

(٣) النقد ص ١٠٧.
(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٩.
(١) النقد ص ١٠٧ ومابعدها.

إن جئت سلعاً فسلْ عن جيرةِ العَلَمِ    واقرَ السلام على عُرْبٍ بذى سَلَمِ

وكل بيت من أبيات القصيدة شاهد على لون من ألوان البديع . ولعل الغرض من هذه القصيدة هو أن تجمع كل انواع البديع وفنونه .

وقد تحدث الجاحظ عن البديع الذى شاع بين شعراء عصره فقال : « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع »[1] ، وقد أخذ عليه ، الدكتور شوقى ضيف ، ماذهب إليه من اختصاص العرب بالبديع قائلا : « ولعله لم يكن جادا كل الجد حين خص العرب بالبديع . لأن كل أدب لا يخلو من تشبيه واستعارة وغير ذلك من فنون البديع . إلا أن يكون إكثار معاصريه منه هو الذى دفعه لمثل هذا الحكم ، وربما كان ذكره للراعي بين أصحاب البديع وهو شاعر أموى هو الذى أوحى لابن المعتز بفكرته التى دعا لها فى كتابه « البديع » ، ونقصد فكرة أن المحدثين قد سبقوا فى البديع من قديم ، سبقهم اليه الإسلاميون من أمثال الراعى ، بل أيضاً الجاهليون ، ومانشك فى أن كثيراً من الفنون التى صورها ابن المعتز فى كتابه التقطه التقاطا من كتابات الجاحظ ، إما منه مباشرة ، وإما ممن نقل عنهم آراءهم فى البلاغة ومحاسنها المختلفة »[2]

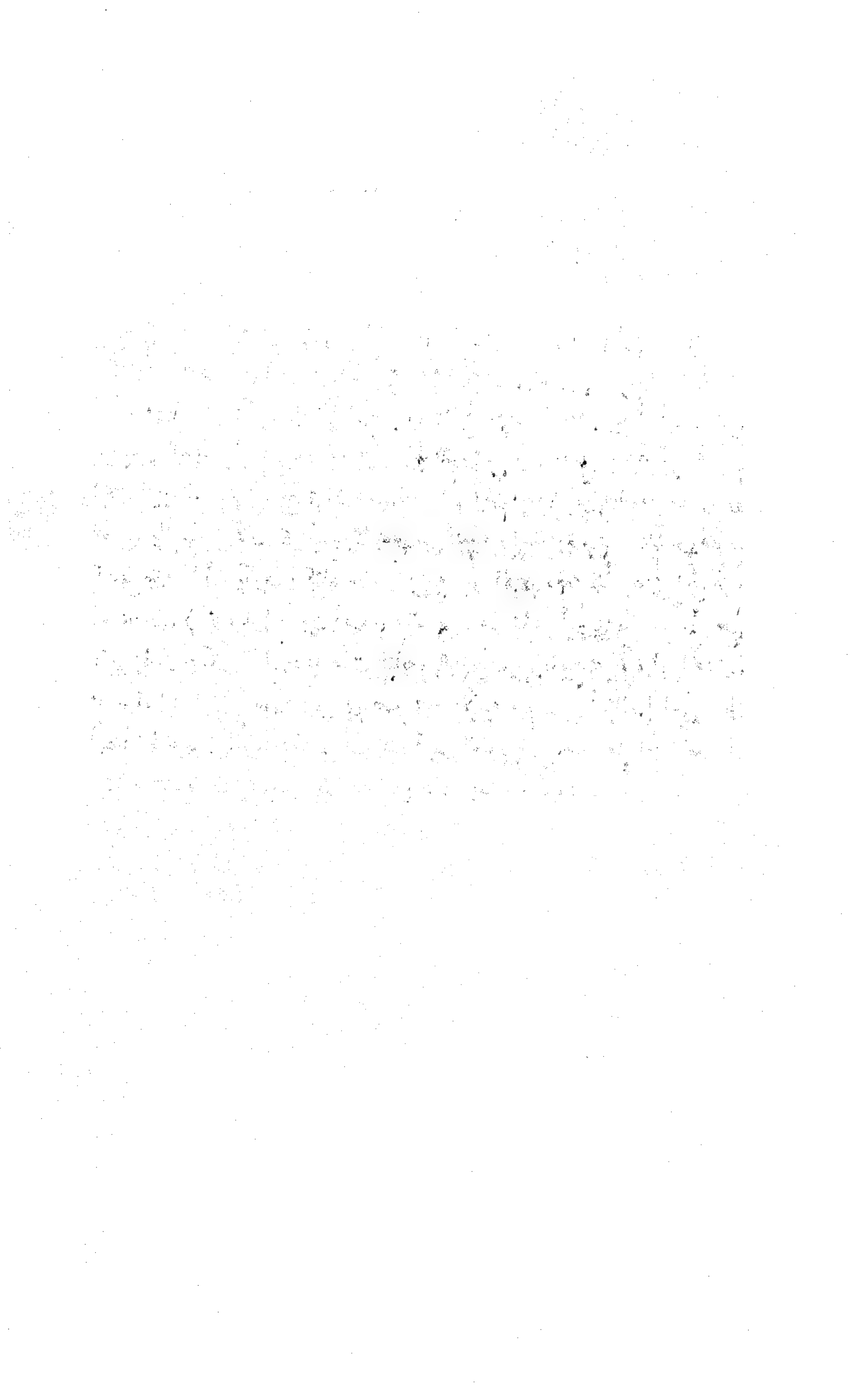
وتنقسم المحسنات البديعية إلى قسمين : قسم يرجع إلى اللفظ وقسم يرجع إلى المعنى .

وسنوضح كلا منهما ، ونقف عند الألوان التى وقف عندها ابن سنان بالدراسة والتحليل وسنبدأ بالحديث عن المحسنات البديعية اللفظية .

---

(١) البيان والتبيين ٤/٥٥

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٦ .



# المحسنات اللفظية

والمحسنات البديعية اللفظية التي ساقها ابن سنان هي :

## أولا : الجناس :

ويسميه ابن سنان المجانس يقول : « ومن التناسب بين الألفاظ المجانس وهو أن يكون بعض الألفاظ مشتقا من بعض إن كان معناهما واحداً ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى ، وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلا غير متكلف ، ولا مقصود في نفسه ، وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الأنصاري ، وأكثر منه ومن استعمال المطابق والمخالف ، وهذه الفنون المذكورة في صناعة الشعر . وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم في استعماله والإكثار منه ، حتى وقع له الجيد والردىء الذي لا غاية وراءه في القبح »[1] .

ويستشهد ابن سنان على الجناس بقول الأفوه الأودى :

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل عيرانة عنتريس[2]

ويقول إن بعض البغداديين كان يسمى تساوى اللفظتين في الصفة مع اختلاف المعنى - كهوجل وهوجل في البيت السابق - ( المماثل ) لأن لفظ الهوجل واحدة والمراد بالأولى الأرض البعيدة » وبالثانية الناقة العظيمة الخلق ، والجناس بين اللفظتين تام . ويذكر الدكتور شوقى ضيف[3] ، أن قدامة بن جعفر استعار

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص -

لقب هذا النوع من ثعلب فى كتابه « قواعد الشعر » وقد سماه العسكرى باسم « التعطف » وكان حريا أن لا يفرده البلاغيون عن الجناس لأنه صورته الكاملة.

فأبو هلال العسكرى يعرف « التعطف » فيقول : « أن تذكر اللفظ ثم تكرره ، والمعنى مختلف[1] » ولعل ذلك ينطبق على بيت الأفوه الاودى الذى استشهد به ابن سنان .

وأشار ابن سنان إلى أن قدامة بن جعفر كان يسمى مالا تتماثل فيه جميع حروف الكلمتين باسم ( المضارعة ) مثل ( تلاق - وتلاف ) كما ذكر أن أبا العلاء استحدث نوعا سماه ( مجانس التركيب ) فيقول :[2] « ومن المجانس فن ورد فى شعر أبى العلاء بن عبد الله بن سليمان وسماه لنا - مجانس التركيب - لأنه يركب من الكلمتين ، مايتجانس به الصيغتان ، كقوله:

مطايا مطايا وجدَ كنَّ منازلٌ     منى زل عنها ليس عنى بمقلع

وما أحفظ لاحد من الشعراء شيئاً من قبيله ، وهو عندى غير حسن ولا مختار ولا داخل فى وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة » .

إلا إن ابن سنان يدرك نوعاً آخر من أنواع الجناس يقول :

« فأما مجانس التصحيف[3] فقد ورد فى شعر أبى عبادة . كقوله :

ولم يكن المغتر بالله إذ سَرَى     ليعْجز والمعتزُّ بالله طالبه[4]

وهذا فى رأيه أقل طبقات المجانس ، لانه مبنى على تجانس أشكال الحروف فى الخط ، وحسن الكلام وقبحه لايستفاد من أشكال حروفه فى الكتابة ، إذ لاعلقة بين صيغة اللفظ فى الحروف وشكله فى الخط » .

---

(١) الصناعتين ص ٤٢٠ :

(٢) سر الفصاحة ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٣) سر الفصاحة ص ٢٣٢ .

(٤) هو من قصيدة له فى مدح المعتز بالله وهجاء المستعين ، وشرى : غضب .

ومما هو جدير بالذكر أن الجناس هو أحد الفنون الخمسة التى بنى عليها ابن المعتز الشطر الأكبر من كتابه ( البديع ) ، وهو إما ناقص وإما تام .

ثانياً : رد العجز على الصدر :

وتكلم عنه ابن المقفع فقال : « وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته[1] .

وسماه ابن المعتز « رد أعجاز الكلام على ما تقدمها » ، وهو من الفنون الخمسة الأساسية فى كتابه ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام[2] :

أولها : ما يوافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة فى نصفه الأول مثل قول الشاعر .

تُلْقَى إذا ما الأمرُ كان عَرَمْرَمَاً  فى جيش رأى لا يُفَلُّ عرمرمِ[3]

ثانيها : ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة فى نصفه الأول كقول بعض الشعراء :

سريعٌ إلى ابن العَمِّ يَشْتِمُ عِرْضَهُ  وليس إلى داعى النَّدَى بسريعِ

ثالثها : ما يوافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه أو بعبارة أخرى بعض ما فى حشوه كقول الشاعر :

عميدُ بنى سليمٍ أقْصَدَتْهُ  سهامُ الموت وهْىَ له سِهَامُ[4]

وسماه قدامة بن جعفر ( التوشيح ) وتوسع فيه بعض الشىء إذ جعله يشمل كل ما يشهد القافية من معانى البيت أو ألفاظه[5] .

---

(١) البيان والتبين ١/١١٥ .

(٢) البديع ص ٤٨ .

(٣) العرمرم : الشديد ، والجيش الكثيف .

(٤) أقصدته : أصابته فقتلته .

(٥) نقد الشعر ص ١١١ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٩١

وقد تكلم عنه ابن سنان بعد حديثه عن ( المعاظلة ) وهى تراكب الكلام وتداخله بعضه فى بعض ، وتوضيح غلط قدامة فى فهم معناها وتبيين الآمدى لخطئه ، ومثل ابن سنان لرد العجز على الصدر بقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش    ثمانين حولا - لاأبالك - يسأم(١)

ويقول : « إن هذا هو الكلام الذى يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتى من عجزه ، فالشعر الجيد أو أكثره مبنى على هذا » .

وقد يأتى هذا الفن فى النثر أيضاً بان يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما فى أول الفقرة ، والآخر فى آخرها كقوله تعالى : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »(٢) .

## ثالثاً : السجع :

يقول ابن سنان : « ومن المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ السجع والازدواج ، ويحد السجع بأنه تماثل الحروف فى مقاطع الفصول وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام ، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً . وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه ، وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ، ويظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، والفصيح من كلام العرب ، وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله . والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد

---

(١) سر الفصاحة ص ١٨٦ .

(٢) الايضاح ص ٣٩٠ .

فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظة ، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه ، فإننا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه وعملنا بموجبه ، لأنه إنما دل على قبح ما يقع من السجع بتحمل وتكلف ، ونحن لم نستحسن ذلك النوع ، ووافقنا أيضا دليل من اختاره ، لأنه إنما دل به على حسن ماورد منه فى كتاب الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، والفصحاء من العرب . وكان يحسن الكلام ، ويبين آثار الصناعة ، ويجرى مجرى القوافى المحمودة ، والذى يكون بهذه الصفات هو الذى حمدناه واخترناه ، وذكرنا أنه يكون سهلا غير مستكره ولا متكلف »[١] .

ويبدو من هذا النص أن ابن سنان يرى أن السجع والازدواج مترادفان ، وقد ميز بينهما غيره من البلاغيين مثل السكاكى وسمى الازدواج ( المزاوجة )، وهى أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء كقول البحترى[٢] :

اذا مانهى الناهى فلج بى الهوى أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

ويقول ابن سنان : « أما الفواصل التى فى القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعا ، وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى نفسها »[٣]

وقد حمل على الرمانى عندما قال : « إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعانى ، والفواصل تتبع المعانى »[٤]

وابن سنان لا يفرق بين فواصل القرآن والسجع ، ويقرر أن السجع يحمد مادام يأتى طوعا سهلا تابعا للمعانى ، ويقول إن القرآن لم يرد فيه إلا ماهو

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٢) خزانة الأدب ص ٥٣١

(٣) سر الفصاحة ص ٢٠٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

من القسم المحمود لعلوه فى الفصاحة . ويذكر أن من فواصله متماثلا ويريد به المسجوع ، ومتقاربا ويريد به المزدوج »[١] .

ويذكر أن كثيرا من الكتاب والمحدثين استعمل السجع كثيرا ولا يكاد يخل به ، ويشير إلى أن قدامة بن جعفر سمى ترك المناسبة فى مقاطع الفصول ( التخميع ) ،[٢] ويختم ابن سنان كلامه فى السجع فيقول : « ومما يجب اعتماده فى هذا ألا تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد ، لأن ذلك يقع تعرضا للتكرار ، وميلا إلى التكلف ، وقد استعمل ذلك فى الخطب وغيرها من المنثور ، وهو يقع فى المكاتبات خاصة[٣] .

رابعاً : لزوم مالايلزم : وهو أن يجىء قبل حرف الروى ومافى معناه من الفاصلة ماليس بلازم فى مذهب السجع ،وقد حمل ابن سنان على أستاذه أبى العلاء لالتزامه مالا يلزم فى قوافى شعره ، وفواصل سجعه[٤] . وهذه هى المحسنات البديعية اللفظية التى وقف عندها ابن سنان وننتقل إلى المحسنات المعنوية .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥٥ ، وسر الفصاحة ص ٢٠٣ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٤) سيأتى الكلام عنه فى ( الفصل الخامس ) .

# المحسنات المعنوية

أول هذه المحسنات البديعية المعنوية : المطابقة : يقول ابن سنان « إن الألفاظ تتناسب من طريق المعنى على وجهين : أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقاربا . والثانى أن يكون أحد المعنيين مضاداً الآخر أو قريبا من المضاد . فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة . وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتضاد من معانى الألفاظ ـ المطابق ـ وسماه أبو الفرج قدامة بن جعفر ـ المتكافىء ـ وأنكر ذلك عليه أبو القاسم الحسن بن بشر »[1] .

فالطباق عند ابن سنان هو مقابلة الشىء بمثله الذى هو على قدره ـ ويسمى المتضادين إذا تقابلا متطابقين . ونراه يذكر أمثلة عديدة للمطابق منها قول عبد الله بن الزبير الأسدى[2] .

فردَّ شعورهنَّ السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا

ونجد ان ابن المعتز سمى ذلك باسم ( الطباق ) وسماه قدامة باسم ( التكافؤ ) وسمى ( التعطف ) باسم ( المطابق ) . ويظل البلاغيون يختلفون فى التسمية إلى أن استقرت أخيرا عند السكاكى باسم ( المطابقة ) وتسمى أيضاً التطبيق والتضاد ، ومعناها الجمع بين الضدين فى كلام ، أو بيت شعر كالإيراد والإصدار ، والليل والنهار ، والبياض والسواد ، وليس فى الألوان ماتحصل به المطابقة غير البياض والسواد . وقد قال الرمانى وغيره البياض والسواد ضدان بخلاف بقية الألوان لأن كلا منهما إذا قوى زاد بعداً عن صاحبه .[3]

والمطابقة كقوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »[4] وكقوله تعالى :

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٣) خزانة الأدب الحموى ص ٨٥ — ٨٦

(٤) سورة الكهف ( آية ١٨ )

« تؤتى الملك من تشاء ، و تنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء »[١] .

٢ — المقابلة :

ويفصل ابن سنان القول فى صحة المقابلة ، ويعرفها بأنها عبارة عن تقابل المعانى والتوفيق بين بعضها وبعض ،حتى تأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة[٢] .

وسماها قدامة بن جعفر [ صحة المقابلات ] وهى أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبا يوفق بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل فى وضوح كقول بعض الشعراء :

فواعجبا ! كيفَ اتفقنا ؟ فناصحٌ وفىٌّ ، ومطوىٌّ على الغلِّ غادرُ

فالشاعر قابل بين النصح والوفاء . بالغل والغدر ، ويدخل ذلك عند ابن المعتز فى المطابقة ، ومما لاشك فيه أن قدامة استمد هذا المصطلح كما استمد غيره من أرسطو فى الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة[٣] . وحرى بنا أن نورد نص كلامه كما جاء عند ابن سينا على هذا النحو[٤] : « الكلام الموصول ربما كان اتصاله أقساما ويسمى المقسم كقولهم : إنى تعجبت من فلان الذى قال كذا وكذا أو من فلان الذى عمل كذا وكذا ، فهؤلاء أقسام المتعجب منهم ، وربما كانت الأقسام إلى التقابل كقولهم :منهم من اشتاق إلى الثروة ، ومنهم من اشتاق الى اللهو ، وكقولهم أما العقلاء فأخفقوا ، وأما الحمقى فأنجحوا . والمتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقا لظهور بعضها ببعض » ويعلق الدكتور شوقى ضيف على ذلك فيقول إن كلام أرسطو فى المقابلة أدق من كلام قدامة ، لأنه لاحظ أنها تحمل فى طواياها التقسيم على نحو ما هو واضح فى البيت الذى أنشده لها

---

(١) سورة آل عمران ( آية ٢٦ ) .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٣٤

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٧

(٤) الخطابة عند ابن سينا ( طبعة وزارة التربية والتعليم ) ص ٢٢٨ .

قدامة ، وأيضا فإنه لاحظ عقب النص الذى نقلناه أن المتقابلات بعضها أضداد وبعضها كالأضداد . ويقول إن الصيغة المتقابلة تجعل الشىء كالمحسوس المشاهد[١] .

ويذكر صاحب خزانة الادب أن جماعة أدخلوها ( المقابلة ) فى المطابقة ، ولكن ذلك غير صحيح فهى أعم من المطابقة ، وهى التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق ، وصحة المقابلات عبارة عن توخى المتكلم بين الكلام على ماينبغى ، فإذا أتى بأشياء فى صدر الكلام أتى بأضدادها فى عجزه على الترتيب بحيث يقابل الاول بالأول والثانى بالثانى ، ولا يخرم من ذلك شيئا فى المخالف والموافق ، فإذا أخل بالترتيب كانت المقابلة فاسدة[٢] .

والمقابلة قد تكون مقابلة اثنين باثنين كقوله تعالى : « فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا[٣] » وقد تكون مقابلة ثلاثة بثلاثة ... ويبلغ الجمع بين عشرة أضداد ، خمسة فى الصدر وخمسة فى العجز ، ولعل ذلك أحد الفروق بين المقابلة والمطابقة ، فالمطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين فقط ، والفرق الثانى أن المطابقة لا تكون إلا بالاضداد بينما المقابلة بالأضداد وغير الأضداد ولكنها بالاضداد تكون أعلى رتبة ، وأعظم موقعا .

٣ — مراعاة النظير :

ويسمى أيضاً التناسب والائتلاف والتوفيق. وقد جعل ابن سنان من شروط الفصاحة المناسبة بين اللفظين ، وهى على ضربين[٤] . مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة ، ومناسبة بينهما من طريق المعنى ، وأدخل فى الطريق الأول ما سماه المتأخرون بمراعاة النظير وهو أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٧ .

(٢) خزانة الأدب ص ٧٠ .

(٣) سورة التوبة ( آية ٨٢ ) .

(٤) سر الفصاحة ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

٤ — المبالغة :

وقد سماها ابن المعتز الافراط فى الصفة ، وسماها قدامة بعده المبالغة وفرع منها الغلو ، وتبعه فى ذلك البلاغيون ، كما جعلها فى مرتبة أقل من الغلو الذى يبنى على الإفراط الشديد ، ومثل لها بقول عمير ابن الأيهم التغلبى .

ونُكرِمُ جارَنا ما دامَ فِينَا ونُتْبِعُهُ الكرامةَ حَيْثُ مالاَ(١)

ولا شك أن قدامة قد استمد فى كلامه عن المبالغة والغلو من كلام أرسطو فى الخطابة .

ونرى الرمانى فى كتابه « النكت فى اعجاز القرآن » يتحدث عن المبالغة فيقول إنها : « الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة » .

ويذكر أنها على وجوه : منها مبالغة عن طريق البنية كصيغ المبالغة فى مثل غفار ومنها مبالغة بالتعميم مثل قولك : أتانى الناس ، والذى أتاك جماعة منهم، ومنها مبالغة بالتعبير عن شىء يصاحبه تعظيما مثل : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » فجعل مجىء آياته مجيئا له على المبالغة فى الكلام ، ومنها مبالغة إخراج الممكن إلى الممتنع، ومبالغة إخراج التعبير مخرج الشك فى مثل : ( وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ) ، ومنها مبالغة بحذف جواب الشرط مثل : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » ، وواضح من هذه الأمثلة أن الرمانى لم يدرس المبالغة بمعناها العام وإنما درسها فى صورها القرآنية(٢) .

وقد تناول ابن سنان الحديث عن المبالغة فى المعنى والغلو فقال : « الناس مختلفون فى حد الغلو وذمه ، فمنهم من يختاره ويقول أحسن الشعر أكذبه ، ويستدل بقول النابغة وقد سئل من أشعر الناس ؟ فقال من استجيد كذبه ،

---

(١) نقد الشعر ص ١٦١ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٨

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٠٤ ، ١٠٥

وأضحك رديئة ، وهذا هو مذهب اليونانيين فى شعرهم ، ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التى تخرج إلى الإحالة ، ويختار ماقارب الحقيقة ودانى الصحة ، ويعيب قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

لما فى ذلك من الغلو والإفراط الخارج عن الحقيقة ، والذى أذهب إليه المذهب الأول فى حد المبالغة والغلو ، لأن الشعر مبنى على الجواز والتسمح ، لكن أرى أن يستعمل فى ذلك ( كاد ) وما جرى فى مناها ، ليكون الكلام أقرب إلى حيز الصحة كما قال أبو عبادة :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما[1]

فهذا البيت قد تضمن غلواً ، لكن حينما وردت كلمة ( كاد ) قربته إلى الصحة . ويقول صاحب خزانة الأدب « إن المبالغة لم تسفر عن غير التهويل على السامع ، ولم يفر الناظم إلى التخييم عليها إلا لعجزه ، وقصور همته عن اختراع المعانى المبتكرة ، لانها فى صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد المعانى الغريبة فيشغل الأسماع بما هو محال وتهويل . وقالوا ربما أنها أطالت المعانى فأخرجتها عن حد الكلام الممكن الى حد الامتناع . والمبالغة تعاب فى بابها إذا خرجت عن حد الإمكان إلى الاستحالة ، وأتى الكلام على حدها فى موضعه ، والذى أقوله أن المبالغة من محاسن أنواع البديع ، ولم يستطرد فى حلبات سبقها إلا فحول هذه الصناعة ، ولولا سمو رتبتها ماوردت فى القرآن الكريم[2] » .

## ٥ — التحرز عما يوجب الطعن ( الاحتراس ) :

وقد تنبه إليه الجاحظ وذكره فى كتابه[3] إلا أنه كان يسميه ( إصابة المقدار ) يقول : « وقال طرفة فى المقدار وإصابته :

---

(١) سر الفصاحة ص ٣١٩ — ٣٢٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٧٨

(٣) البيان والتبين ١/٢٢٥

فسقى ديارك – غير مفسدها – صوب الربيع وديمة تهمى

طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار . سماه قدامة بن جعفر [ الاحتراس ] وجعله نوعا من التتميم .

ويسميه ابن سنان [ التحرز مما يوجب الطعن ] . ويعرفه بأن المتكلم يأتى بكلام لو استمر عليه لكان فيه طعن ، فيأتى بما يتحرز به من ذلك الطعن كقول طرفه :

فسقى ديارك – غير مفسدها – صوب الربيع وديمة تهمى(١)

فلو لم يقل – غير مفسدها – اظن أنه يريد توالى المطر عليها ، وفى ذلك فساد للديار ومحو لرسومها ، كما يستشهد ابن سنان بقول عبد الله ابن المعتز فى صفة الخيل :

صببنا عليها – ظالمين – سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فلو لم يقل الشاعر – ظالمين – لكان للمعترض عليه أن يقول : إنما ضربت هذه الخيل لبطئها .

وتكلم ابن حجة عن الاحتراس فقال :(٢) « بأن يأتى المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن له فيأتى بما يخلصه من ذلك ، ومثاله فى كتاب الله عز وجل « اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء »(٣) فاحترس بقوله سبحانه وتعالى [ من غير سوء ] عن إمكان أن تدخل البرص والبهق وغير ذلك » .

وإذا كان قدامة بن جعفر قد جعل الاحتراس ضربا من التتميم ، نرى ابن حجة يفرق بينه وبين التتميم والتكميل فيقول : « إن المعنى قبل التكميل صحيح تام ثم يأتى التكميل بزيادة تكمل حسنه ، إما بفن زائد أو معنى ، والتتميم يأتى لتتميم نقص المعنى ونقص الوزن معا ، والاحتراس إنما هو لدخل يتطرق إلى المعنى وإن كان تاما كاملا ووزن الشعر صحيحا » .

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٢٢

(٢) خزانة الأدب ص ٥٥٩

(٣) سورة القصص ( آية ٣٢ ) .

٦ — حسن التعليل :

ويسميه ابن سنان الاستدلال ، وجعله على ضربين :

الاستدلال بالتمثيل : وهو أن يزيد فى الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له — ولعله يريد به الاستعارة بالتمثيل — نحو قول أبى العلاء :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للافراط فى الخصر

فدل على أن الزيادة فيما يطلب ، ربما كانت سببا للامتناع منه ، بتمثيل ذلك بالماء الذى لا يشرب لفرط برده ، وإن كان البرد فيه مطلوبا محمودا[١] . وكقول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشْتعال النارِ فيما جاورت ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العودِ

والضرب الثانى : هو الاستدلال بالتعليل ، وهو نفس ما سماه البلاغيون من بعده باسم [ حسن التعليل ] كقول أبى الحسن التهامى :

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيباً ساعة السحر(٢)

ومثاله فى حديث الرسول عليه السلام : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » فخوف المشقة على الأمة ، هو علة فى التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة .

ومما هو جدير بالذكر أن الاستدلال الذى تكلم عنه ابن سنان ، هو نفس ما سماه أبو هلال العسكرى باسم الاستشهاد والاحتجاج[٣] وأفرد له الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « الصناعتين » .

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٢١ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٣) الصناعتين ص ٤١٦

٧ — صحة التقسيم :

نوه الجاحظ بالتقسيم وجودته ، وعلل به استحسان عمر بن الخطاب لبعض شعر زهير وعبدة بن الطبيب ، يقول[1] : « ولقد انشدوه شعرا لزهير — وكان لشعره مقدما — فلما انتهوا إلى قوله :

وإنَّ الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمين أو نفار أو جلاء[2]

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ، وإقامته أقسامها :

وإنَّ الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جلاء

يردد البيت من التعجب ، وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التى على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرء ساعٍ لشيء ليس يدركه والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

قال عمر متعجباً . [ والعيش شح وإشفاق وتأميل ] يعجبهم من حسن ماقسم وفصل .

وتحدث قدامة بن جعفر عن صحة التقسيم فقال[3] : « هو أن يستوفى الشاعر جميع الأقسام لما ابتدأ به ، كقول نصيب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم : نعم ، وفريق قال : ويحك ماندرى

فليس فى أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام .

وتكلم ابن سنان عن المعانى المفردة وابتدأ بصحة التقسيم فقال : « ينبغى أن يتجنب فيها الاستحالة والتناقض[4] ، ومعنى التقسيم : ذكر متعدد ثم إضافة

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٣ .

(٢) النفار : المنافرة إلى حكم يقضى بينهم .

(٣) نقد الشعر ص ١٤٩ .

(٤) سر الفصاحة ص ٢٨١

مالكل إليه على التعيين ليخرج اللف والنشر ، وهذه عبارة صاحب التلخيص[١] وذكر بعضها فى الإيضاح[٢].

## ٨ — العكس : [ التبديل ] :

ويسميه ابن سنان [ التبديل ] فيقول : « ومما يجرى مجرى المطابق أن يقدم فى الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاما ، ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدماً فى الأول مؤخراً فى الثانى ، وما كان مؤخراً مقدماً ، وقد سمى قدامة بن جعفر الكاتب هذا الفن — التبديل — ومثله بقول بعضهم : أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك . ويقول الحسن البصرى : إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير لك عن آمنك حتى تلق الخوف . وقول عمرو بن عبيد فى بعض دعائه . اللهم أغنى بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك[٣] ويستشهد ابن سنان بقول عمرو بن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضا   وتصدرهن حمراً قد روينا

والعكس فى اللغة ، هو رد آخر الشىء على أوله ، ويقال له التبديل . و الاصطلاح تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره ، ويقع على وجوه كثيرة ولكن المراد هنا ما استعمل منها وما كثر استعماله فالمقدم فى هذا الباب قوله تعالى ( تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى )[٤] فالعكس هنا ميز بعلو طباقه وبشرف القدرة الإلهية التى لا تصدر إلا عن عظمة الخالق جلت قدرته ، وبلاغة القرآن وايجازه وفصاحته وعلى كل تقدير فالعكس نوع رخيص بالنسبة إلى مافوقه من أنواع البديع العالية ، وإن لم يصوب البليغ عكسه بنكتة بديعية تنظمه فى سلك أنواع البديع فهو مستمر على عكسه »[٥].

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٣٠ .

(٢) الايضاح ص ٣٥٨ .

(٣) سر الفصاحة ص ٢٣٩ .

(٤) سورة آل عمران ( آية ٢٧ )

(٥) خزانة الأدب ص ٢٠١ .

٩ — اللف والنشر :

وسماه ابن سنان « حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب » يقول : « ومن التناسب حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ليكون مايرجع إلى المقدم مقدما وإلى المؤخر مؤخراً » . ومثال ذلك قول الشريف الرضى :

قَلْبِي وطَرْفِي منك هـذا فى حِمى قَيْظٍ وهـذا فى رياض ربيـع[1]

فإنه لما قدم — قلبى — وجب أن يقدم وصفه بأنه فى حمى قيظ ، فلو كان قال — طرفى وقلبى منك — لم يحسن فى الترتيب أن يؤخر قوله — فى رياض ربيع — والطرف مقدم » .

وسمى البلاغيون المتأخرون هذا الضرب باسم « اللف النشر » .

١٠ — الاعتراض والتتميم والإيغال :

يقول ابن سنان « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشوا ، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافى وحرف الروى إن كان الكلام منظوما ، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً ، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك[2] .

وقد جعل ابن سنان من [ الحشو ] حسنا وقبيحاً ، وأدخل فى الحسن ماسماه من سبقوه باسم الاعتراض والتتميم والإيغال — واستشهد على ذلك بقول أبى الطيب المتنبى :

وتحتقرُ الدُّنيا احتقار مجـرِّب يرى كلَّ مافيها ـ وحاشاك ـ فانيا

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

فكلمة — حاشاك — هنا لفظة لم تدخل إلا لكمال الوزن ، لأنك إذا قلت — احتقار مجرب يرى كل ماتقيها فانيا — كان كلاما صحيحاً مستقيما ، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاء حسنا للممدوح فى موضعه . إلا أننا نأخذ على ابن سنان فى تسميته مثل ذلك [ حشواً ] فهذا اعتراض لاحشو ومثله قول الشاعر :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فكلمة — وبلغتها — تجرى مجرى — وحاشاك — فى الفائدة ، ولو ألغيت فى البيت لصح المعنى بدونها ، إلا أن ورودها يفيد الدعاء للمخاطب بطول العمر .

ويعرف صاحب خزانة الأدب [ الاعتراض ] « بأنه عبارة عن جملة تعترض بين الكلامين تفيد زيادة فى معنى غرض المتكلم ، ومنهم من سماه الحشو ، وقالوا فى المقبول منه حشوا ، وليس بصحيح ، والفرق بينهما ظاهر وهو أن الاعتراض يفيد زيادة فى غرض المتكلم والناظم ، والحشو إنما يأتى لإقامة الوزن لاغير ؛ وفى الاعتراض من المحاسن المكملة للمعانى المقصودة مايتميز به على أنواع كثيرة »[1] .

ويقول الحموى فى خزانته أن الإيغال هو « أن الشاعر إذا انتهى إلى آخر البيت استخرج سجعة أوقافية يريد معنى زائدا ، فهو قد تجاوز حد المعنى الذى هو آخذ فيه ، وبلغ مراده فيه إلى زيادة عن الحد ، وهذا النوع مما عرفه قدامة وفسره بأن قال : هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتى بقافيته فإذا أراد الإتيان بها ليكون الكلام شعراً أفاد بها معنى زائداً على معنى البيت كقول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مية واسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل[2]

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٤٨ .

(٢) نقد الشعر ص ١٩٤ وانظر خزانة الأدب ص ٢٨٩ .

فتم كلامه قبل القافية ، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائداً .

ويقول الدكتور شوقى ضيف بأن قدامة استعار الإيغال من الأصمعى[١] ، وذكر ذلك ابن سنان صراحة إذ يقول : « وروى أبو الفرج قدامة بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد عن التوزى :

قال : قلت للأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى . قال : نحو من ؟ قال : نحو ذى الرمة حيث يقول :

قف العيس فى أطلال مية وسأل ∗∗∗ رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم الكلام ثم قال — المسلسل —[٢] ويقول ابن سنان : إن أصحاب صناعة الشعر سموا هذا المعنى ( الإيغال ) وأرادوا بذلك أن الشاعر يوغل بالقافية فى الوصف إن كان واصفا ، وفى التشبيه إن كان مشبها » .

والتتميم عرفه قدامة: « بأن الشاعر يذكر معنى ولا يدع شيئا يتمم به صحته وجودته إلا أتى به إما بقصد المبالغة وإما بقصد الاحتياط ، وجعل منه ( الاعتراض ) ( والاحتراس )[٣] .

## ١١ — التكرار :

ويقول ابن سنان أن منه ما يستحسن ومنه ما يستقبح فالتكرار لا يكون قبيحاً إذا كان المعنى المقصود لا يتم إلا به . كقول الشاعر :

وأنت أبو الهيجا بن حمدانَ يا ابنَهُ ∗∗∗ تشابهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٩١ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) نقد الشعر ص ١٥٧ ومابعدها ، وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٨ .

وحمدان حمدون وحمدون حارث    وحارث لقمان ولقمان راشد[١]

فيقول ابن سنان أن الشاعر ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف، لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث ابن لقمان بن راشد، ولو ورد هذا الكلام نثراً لم يرد إلا على هذه الصفة، فلما عرض فى هذا التكرار معنى لا يتم إلا به سهل الأمر فيه، وكان البيت مرضيا غير مكروه، وعلى ذلك يجب أن يحمل كل تكرار يجرى هذا المجرى، ومن التكرار القبيح عند ابن سنان قول مسلم ابن الوليد الانصارى :

سُلَّت وسلّت ثم سلّ سليلها    فأتى سليلُ سليلها مسلولا

فيقول ابن سنان، لولا أن هذا البيت مروى لمسلم وموجود فى ديوانه لكنت أقطع على أن قائله أبعد الناس ذهنا، وأقلهم فهما، وممن لا يعد فى عقلاء العامة فضلا عن عقلاء الخاصة، لكنى أخال خطرة من الوسواس، أو شعبة من البرسام عرضت له وقت نظم هذا البيت، فليته لما عاد إلى صحة مزاجه وسلامة طباعه جحده فلم يعترف به، ونفاه فلم ينسب إليه، وما أضيف هذا وأمثاله إلا إلى عوز الكمال فى الخلقة، وعموم النقص لهذه الفطرة »[٢].

ومما هو جدير بالذكر أن الجاحظ تناول الحديث عن الترداد والتكرار فى القصص القرآنى ومواعظ الوعاظ وتناوله من بعده البلاغيون المتأخرون.

١٢ — المساواة :

وقد عرفها قدامة بن جعفر عند حديثه على ائتلاف اللفظ مع المعنى فقال :[٣] « هى أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه، ولا ينقص عنه، وهو نعت يدور كثيراً فى كتاب ( البيان والتبين ) إن لم يكن بلفظه ففى عبارات كثيرة تدل عليه مثل ( الألفاظ قوالب للمعانى ) وينبغى ألا تكون فاضلة عنها ولا مقصرة، بل تكون على قدرها ووفقها.

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٣ — ١١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ — ١١٧

(٣) نقد الشعر ص ١٧١ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٩.

وتكلم عنها أبو هلال العسكرى فقال[١] : « هو أن تكون المعانى بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعانى لا يزيد بعضها على بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب » . ويقول ابن سنان[٢] : فأما المساواة بين اللفظ والمعنى فكما وصف بعض الأدباء رجلا فقال : « كانت ألفاظه قوالب لمعانيه » أى هى مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر ، وحد المساواة المحمودة هو إيضاح المعنى باللفظ الذى لا يزيد عنه ولا ينقص . وقد احترزت بقولى — لا يزيد عنه — لأن التذييل لفظ يزيد على المعنى وفرقت بين المساواة والإيجاز والإخلال بقولى — ولا ينقص — لأن الإيجاز إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ ، والإخلال هو نقص المعنى باختصار اللفظ — فقد فهم بهذا القول — الإيجاز والإخلال والمساواة والتذييل » وذكر أمثلة عديدة على المساواة منها قول زهير :

ومهما يكُن عند امرىء من خليقةٍ      وإن خالها تخفَى على الناس تُعلَم

ولعل ابن سنان بذلك قد فهم المراد بالمساواة .

١٣ — التوشيح والتسهيم :

يقول ابن سنان « إذا كان أول الكلام ينبىء عن آخره ، أو إذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتى من عجزه[٣] » فبعض الناس يسمى هذا الفن من الشعر باسم « التوشيح » وبعضهم يسميه « التسهيم » ومثاله قول الشاعر :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها      فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ويتحدث الحموى عن « التسهيم » فيقول : « التسهيم تارة يدل على عجز البيت ، وتارة يدل على مادون العجز ، وتعريفه أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر تارة بالمعنى وتارة باللفظ »[٤] .

---

(١) الصناعتين ص ١٧٩ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٥٥

(٣) المرجع السابق ص ١٨٧

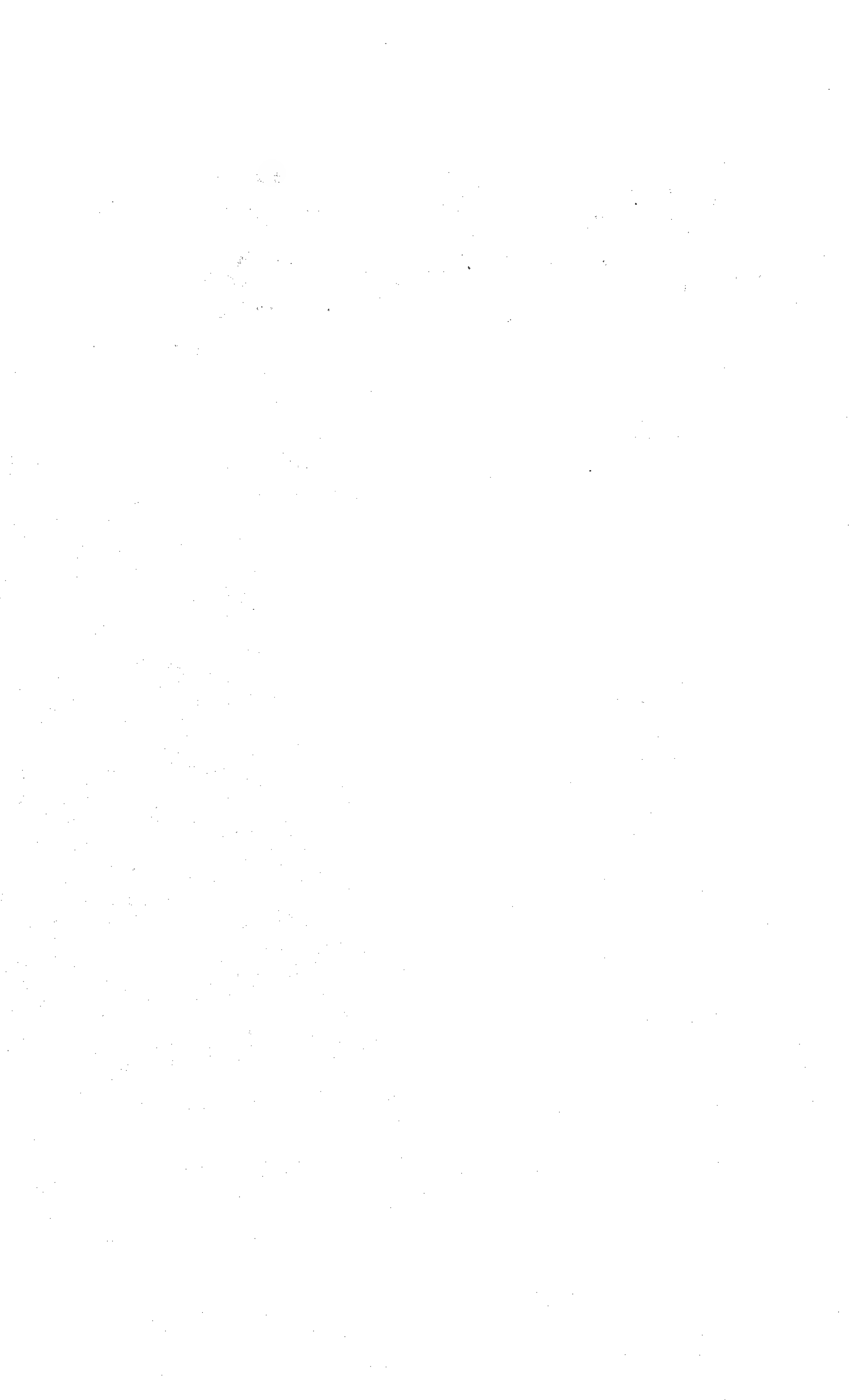
(٤) خزانة الأدب ص ٤٥٧ .

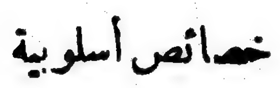
كما عرف « التوشيح » بقوله : أن يكون معنى أول الكلام دالا على لفظ آخره ، ويقول أن هذا النوع فرعه قدامة من ائتلاف القافية مع مايدل عليه سائر البيت ، وقال فيه : « التوشيح ، هو أن يكون أول البيت معنى إذا فهمته فهمت منه قافية البيت ، بشرط أن يكون المعنى المقدم بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه .[1]

• • •

وبعد أن ذكرنا المحسنات البديعية عند ابن سنان ، سنشير إلى الخصائص الأسلوبية التى تعرض لها .

(١) خزانة الأدب ص ١٢٦ وانظر نقد الشعر ص ١٩١ .





# خصائص أسلوبية



# الايجاز والاطناب

تكلم الجاحظ عن الايجاز والاطناب . ولاحظ ملاحظة دقيقة هي أن الذكر الحكيم حين يتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء يعمد إلى الايجاز والاقتضاب . فإذا عمد إلى مخاطبة اليهود أطال وأطنب فى الكلام لنقص فصاحتهم . يقول : « وللاطالة موضع وليس ذلك بخطل . وللاقلال موضع وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام . »[1]

وتوسع الجاحظ فى الحديث عن الاطناب والايجاز ومواضعهما . ومن ذلك حديثه عن الترداد والتكرار فى القصص القرآنى ومواعظ الوعاظ . يقول : « وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه . ولا يؤتى على وصفه . وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره ( الخطيب ) من العوام والخواص . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود . وهارون . وشعيب . وابراهيم . ولوط . وعاد وثمود . وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة لانه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبى غافل أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب . وأما أحاديث القصص والرقة (الموعظة) فانى لم أر أحدا يعيب ذلك . وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيا . »[2]

وبينما نراه يرتضى الاطناب فى الخطابة نراه لا يرتضيه فى الرسائل ، ولم يعن الجاحظ بالإيجاز بمجرد قصر الألفاظ . وقلة كميتها وانما أراد مساواتها الدقيقة للمعانى دون زيادة — وهذا ما أكده ابن سنان — وقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزاً . يقول الجاحظ : « والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف

---

(١) الحيوان ١/٩٣ ومابعدها

(٢) البيان والتبيين ١/١٠٥

واللفظ ، فقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار ( صحيفة كبيرة ) فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغى للمتكلم أن يحذف بقدر مالا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يردد ، يكرر ، وهو يكتفى فى الإفهام بشطره ، فما فضل على المقدار فهو الخطل . »[١]

وواضح أنه كما ينكر أن يكون الإيجاز بقصر الكلام ينكر أن يكون الاطناب باتساع القول من حيث هو ، فقد يكون الإتساع فيه من باب الإيجاز ، وقد يكون الكلام قصيراً ومع ذلك يعد .طنبا ، فالعبرة بالموقف والمقامات .

وعرف الرمانى الايجاز بأنه[٢] « تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى » ولعل هذا هو أدق تعريف للإيجاز ، وقد ذكر أنه على وجهين : إيجاز حذف وهو ما أسقطت فيه كلمة للاستغناء عنها بدلالة غيرها من الحال .أو من فحوى الكلام ، كحذف الأجوبة فى القرآن فى مثل :« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (٣) اذ لم يذكر الجواب كأنه قيل : « لكان هذا القرآن » . ومما ساقه من أمثلة هذا النوع قوله تعالى : « واسأل القرية » أى أهل القرية .

والبلاغيون المتأخرون يدخلون هذا التعبير فى المجاز المرسل . والوجه الثانى أو النوع الثانى للايجاز : إيجاز القصر ، وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، مثل . « ولكم فى القصاص حياة » (٤) ، وبذلك صور الرمانى الإيجاز تصويرا نهائيا ، بحيث لم يضف إليه البلاغيون التالون شيئاً ، وقد مضى يفرق تفريقا بينا بين الإيجاز والإخلال والإطناب والتطويل.

ونرى أبا هلال العسكرى يجعل الباب الخامس من كتابه « الصناعتين » للايجاز والإطناب ، وقد استضاء فيه بالرمانى ، فقسم الايجاز إلى إيجاز قصر وايجاز حذف ثم تحدث عن الاطناب ، وجعل بينه وبين الإيجاز المساواة .

---

(١) الحيوان ١/٩١

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٥ .

(٣) الرعد ( آية ٣١ ) .

(٤) سورة البقرة ( آية ١٧٩ ) .

ويتحدث عن الإيجاز فيقول:[1] قال أصحاب الايجاز : الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل فى باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة .

ويقسم العسكرى الإيجاز — كما سبق أن ذكرنا — إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف[2] ، فالقصر هو تقليل الألفاظ . وتكثير المعانى ، والحذف وهو على وجوه منها : أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه ، وإما أن يأتى الكلام على أن له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به ، ومنها أن يوقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله كقوله تعالى : « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » ومعناه : وادعوا شركاءكم . ومن وجوه الحذف القسم بلا جواب كقوله تعالى : « ق والقرآن المجيد بل عجبوا » ومعناه : ق والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد ماجاء بعده من ذكر البعث فى قوله تعالى : « أئذا متنا وكنا ترابا » .

ومن الحذف اسقاط ( لا ) من الكلام فى قوله تعالى : « يبين الله لكم أن تضلوا » أى « لأن لا تضلوا » وقد ذكر العسكرى شواهد كثيرة من الشعر والقرآن الكريم على الحذف .

ثم تكلم بعد ذلك عن الاطناب[3] فقال : « قال أصحاب الاطناب : المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون الا بالإشباع ، والشفاء لا يقع إلا بالاقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ، ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة الا بالإستقصاء . والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة ، والغبى والفطن ، والريض والمرتاض ، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية فى إفهام الرعايا » .

---

(١) الصناعتين ص ١٧٣

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ — ١٨٩

(٣) الصناعتين ص ١٩٠

وينهى كلامه عن الإيجاز والإطناب بقوله : « والقول القصد أن الايجاز والإطناب يحتاج إليهما فى جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه ، فمن أزال التدبير فى ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب فى موضع الإيجاز ، واستعمل الإيجاز فى موضع الإطناب أخطأ ».[١]

ويتضح لنا من كلام العسكرى مدى الحاجة إلى الإيجاز واطناب فى الكلام، كما أن لكل منهما مكانه وموضعه . والمهم أن العسكرى لاحظ أن بين الإيجاز والاطناب واسطة هى ( المساواة[٢] ) . وهى أن تكون المعانى بقدر الألفاظ والالفاظ بقدر المعانى ، لا يزيد بعضها على بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب ، واليه أشار القائل بقوله : كأن الفاظه قوالب لمعانيه ، أى لا يزيد بعضها على بعض، وهذا هو مافضله ابن سنان .

ويقول ابن سنان : « ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام ، حتى يعبر عن المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس ، حتى إنهم إنما يستحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة . ومن الناس من يقول : إن من الكلام ما يحسن فيه الاختصار والايجاز ، كأكثر المكاتبات والمخاطبات والأشعار ، ومنه ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة ، كالخطب والكتب التى يحتاج أن يفهمها عوام الناس وأصحاب الاذهان البعيدة ، فإن الألفاظ إذا طالت فيها وترددت فى إيضاح المعنى أثر ذلك عندهم فيه ، ولو اقتصر بهم على وحى الألفاظ وموجز الكلام ولم يقع لأكثرهم . حتى يقال فى ذكر السيف — الحسام القاطع ، الجراز الباتر — وفى وصف الشجاع — البطل الفاتك . النجد الباسل — وما يجرى هذا المجرى . قالوا : وربما كان ذلك الكتاب بالفتح أو الخطبة تقرأ فى موقف حافل يكثر فيه لغط الناس ،

---

(١) الصناعتين ص ١٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وصخبهم ، فيحتاج إلى تكرير الألفاظ ليكون ما يفوت سماعه قد استدرك بما هو فى معناه » .[١]

ثم يقول : « والذى عندى فى هذا الباب أنهم إن كانوا يريدون بالإطالة تكرير المعانى والألفاظ الدالة عليها وخروجها فى معاريض مختلفة ووجوه متباينة — وإن كان الغرض فى الأصل واحدا — فليس هذا مما نحن بسبيله ، لأنه بمنزلة إعادة كلام واحد مرارا عدة . فإن تلك الإعادة لا تؤثر فيه حسناً ولا قبحاً ، وإن كانوا يريدون أن المعنى الذى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ يسيرة موجزة قد يحسن أن يعبر عنه بألفاظ طويلة . ليكون ذلك داعيا إلى فهم العامى والبليد له ، وتكون الإطالة فى هذا الموضع خاصة أصح وأحمد ، كما أن الوحى والإشارة فى موضعهما أوفق وأحسن . فإنا لا نسلم ذلك ، لأنا نذهب إلى أن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خافيا مستغلقاً ، كالمعانى التى وردت فى شعر أبى الطيب .[٢] »

ثم يصرح بأنه إذا كان الكلام الموجز لا يدل على معناه دلالة ظاهرة فهو عنده قبيح مذموم لا من حيث كان مختصراً ، بل من حيث كان المعنى فيه خافيا وأن كان يدل على معناه دلالة ظاهرة الا أنها تخفى على البليد والبعيد الذهن ، ومن لا يسبق خاطره إلى تصوير المعنى . ولو كان الكلام طويلا لجاز أن يقع لهم الفهم ، فليس هذا عندنا بموجب أن يكون الإسهاب فى موضع من المواضع أفضل من الإيجاز ، كما أن النقوش الغليظة فى كثير من الصناعات لا تكون أحسن من النقوش الدقيقة ، لأن تلك يدركها الضعيف البصر . ويتعذر عليه إدراك هذه ، ولو اعتبرنا هذا فى الكلام وفهم البليد له لاعتبرنا ذلك فى النقوش وإدراك الضعيف البصر لها ، وهذا فاسد . ويلزم من ذهب إلى اختيار العبارة عن المعنى بالألفاظ الكثيرة من حيث كان ذلك سبباً لفهم العوام ، ومن لا يسبق ذهنه إلى تصور المعنى أن يختار الألفاظ العامية المبتذلة على الألفاظ الفصيحة التى لم تكثر استعمالها العامة ولا ابتذلوها ، لأن علته فى اختيار الطويل لأجل

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ٢٤١ — ٢٤٢ .

فهمهم له قائمة فى الألفاظ المبتذلة ، ولا خلاف أنهم إلى فهمها أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له . وهذا مما لا يذهب اليه أحد ولا التزمه ملتزم[١] » .

ويتضح من كلام ابن سنان أن هدفه هو أن يكون المعنى واضحاً غير مستغلق بحيث يفهمه الرجل العامى والبليد ، ومن لا يسبق خاطره إلى تصور المعنى أى بطىء الفهم . ويفضل أن يكون الكلام طويلا حتى يقع لهم الفهم ، ثم يعود فيفضل الكلام المختصر ، ويمثل لذلك بالنقوش الغليظة فى كثير من الصناعات لا تكون أحسن من النقوش الدقيقة .

ونراه يقسم دلالة الألفاظ على المعانى إلى ثلاثة أقسام : أحدها المساواة : وهى أن يكون المعنى مساويا للفظ ، والثانى التذييل : وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلا عنه ( وهو الاطناب ) .

والثالث الإشارة : وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة .

ويذكر ابن سنان أن التذييل يصلح للمواقف الجامعة . وبحيث يكون الكلام مخاطبا به عامة الناس ، ومن لا يسبق ذهنه إلى تصور المعانى ، والإشارة تصلح لمخاطبة الخلفاء والملوك ومن يقتضى حسن الأدب عنده التخفيف فى خطابه وتجنب الإطالة فيما يتكلف سماعه . والمساواة التى هى الوسط بين هذين الطرفين — من الإشارة والتذييل — تصلح للوسط بين الطرفين اللذين هما الملوك وعوام الناس» [٢]

ثم يقول: إن المختار فى الفصاحة والدال على البلاغة هو أن يكون المعنى مساويا للفظ أو زائدا عليه . أى أن تدل الألفاظ القليلة على المعانى الكثيرة دلالة واضحة ظاهرة ، وألا يؤثر الإيجاز فى المعنى فيجعله غامضاً ، ويحتاج فى استنباطه إلى طرف من التأمل ودقيق الفكر .

---

( ١ ) سر الفصاحة ص ٢٤٣

( ٢ ) المرجع السابق نفس الصفحة .

ولاحظ ابن سنان أن الإيجاز يطلب فى مواطن ويطلب الاطناب فى مواطن أخرى .

ومن ذلك يتضح أن البلاغيين جميعاً متفقون فى كلامهم عن الإيجاز والإطناب ، ولعل ابن سنان قد تأثر بالعسكرى فى قوله إن الإيجاز يطلب فى مواطن ، ويطلب الاطناب فى مواطن أخرى . وجعل بينهما المساواة .

وقد تابع ابن سنان الرمانى فى تقسيمه الإيجاز إلى : إيجاز قصر ، إيجاز حذف . وجعل من الاطناب ( التذييل ) كما جعل الإشارة واللمحة الدالة من الإيجاز ، إذ هما لفظ موجز يدل على معنى طويل .

إلا أن ابن سنان يصرح بأن تعريفه للايجاز أوضح من تعريف الرمانى له يقول : ويجب أن نحد الإيجاز المحمود بأن نقول : « هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ ، وهذا الحد أصح من حد أبى الحسن الرمانى بأنه العبارة عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ . وإنما كان حدنا أولى لأننا قد احترزنا بقولنا — ايضاح — من أن تكون العبارة عن المعنى وإن كانت موجزة غير موضحة له ، حتى يختلف الناس فى فهمه ، فيسبق إلى قوم دون قوم بحسب أقساطهم من الذهن وصحة التصور . فإن ذلك وإن كان يستحق لفظ الإيجاز والاختصار فليس بمحمود حتى يكون دلالة ذلك اللفظ على المعنى دلالة واضحة »[1]

ثم يورد ابن سنان عدة شواهد من الشعر والقرآن الكريم ليوضح بها معنى الإيجاز والاطناب ثم يتكلم عن تقسيمات إيجاز الحذف التى سبق أن ذكرها العسكرى .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٤٨



# التقديم والتأخير

تكلم ابن سنان عن التقديم والتأخير فقال : «[1] ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، حتى يؤدى ذلك إلى فساد معناه وإعرابه فى بعض المواضع ، أو سلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين مايقبح فصله فى لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبههما » ويستشهد على ذلك بما قاله الفرزدق فى مدح إبراهيم بن اسماعيل خال هشام ابن عبد الملك :

وما مثلهُ فى الناس إلاّ مملكا ... أبو أمه حى أبوه يقـــاربه

ففى هذا البيت من التقديم والتأخير . ماقد أحال معناه وأفسد إعرابه ، لأن مقصوده — وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه . يعنى هشاما لأن أبا أمه أبو الممدوح .

ثم يذكر ماقاله الفرزدق أيضاً :

فليست خراسانُ التى كان خالد ... بها أسدٌ إذ كان سيفاً أميرُ ها[2]

ويقول إن جماعة من النحويين قالوا : « إنه يمدح خالدا ويذم أسدا ، وكانا واليين بخراسان وخالد قبل أسد . وتقدير البيت: فليست خراسان بالبلدة التى كان خالد فيها سيفا إذ كان أسد أميرها . ويكون رفع أسد بكان الثانية وأميرها نعت له — وكان — فى معنى وقع . أو يكون فى — كان — ضمير الشأن ويكون أسد وأميرها مبتدأ وخبرا فى موضع خبر الضمير . وقال أبو سعيد السيرافى : إن تقدير البيت عنده أن يجعل أسدا بدلا من خالد ، ويجعله هو خالداً على سبيل التشبيه له بالأسد ، فكأنه قال : فليست خراسان التى كان بها أسد إذ كان سيفاً أميرها . ويجعل سيفاً خبرا لكان الثانية ويجعل أميرها الاسم ، وعلى التأويلين جميعا فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ووضع الالفاظ

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

فى غير موضعها ، والفرزدق أكثر الشعراء استعمالا لهذا الفن حتى كأنه يعتمده ويقصده ويعتقد حسنه » .

ويرى عبد القاهر أن التقديم والتأخير باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضى بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك أن قدم فيه شىء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان »[1] .

ويعيب عبد القاهر على من يهون من أمر التقديم والتأخير ، مكتفياً بأن يقال إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولم كان أهم . « ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم وهونوا الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه ، والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم ترظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه[2] .

ولا شك أن باب التقديم والتأخير من الأبواب التى تظهر بها مزية الكلام ويعلو بها أسلوب على أسلوب ، ويبدو بها إعجاز القرآن الكريم . ويرى عبد القاهر أنه ينبغى أن يعرف فى كل شىء قدم فى موضع من الكلام أن يعرف السر فى تقديمه ، ويفسر وجه العناية به .

وعلى هذه الأسس مضى يعالج مسائل التقديم والتأخير ، وأول ماعالجه من هذه المسائل الاستفهام بالهمزة[3] ومعروف أن الهمزة تأتى فى أول الكلام إما للاستفهام كقولك أفعلت ؟ أو للتقرير كقوله تعالى . « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم » أو لمعنى آخر هو انكار أن يكون الفعل قد كان من أصله كما فى قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا » .[4]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٣٧

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٣٩

(٣) المرجع السابق ص ١٤١ ، وانظر عبد القاهر الجرجانى — أعلام العرب — الدكتور أحمد أحمد بدوى ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) سورة الإسراء ( آية ٤٠ ) .

ومن التقديم والتأخير عند ابن سنان قول المرار بن سعيد الأسدى :

صددت فأطولت الصدودَ وقلّما    وصالٌ على طول الصدود يدوم[١]

فالشاعر يريد أن يقول : وقلما يدوم وصال على طول الصدود .

وقول المتنبى :

جفختْ وهم لا يجفخون بها بهم    شيمٌ على الحسب الأغر دليل

فهو يريد جفخت — ( فخرت وتكبرت ) — بهم وهم لا يجخفون بها .

وفى هذا الصدد نرى ابن سنان يتعرض للكلام عن ( المقلوب ) فيقول : « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه ، ومن ذلك قول عروة بن الورد العبسى :

فلو أنى شهدتُ أبا سعاد    غداة غداً لمهجته يفوقُ

فديتُ بنفسه نفسى ومالى    وما آلوك إلا ما أطيق[٢]

فعروة يريد أن يقول : فديت نفسه بنفسى .

ويذكر ابن سنان قول أبى الطيب :

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقتهُ    فعجبت كيف يموتُ من لا يعشقُ

ويصرح[٣] بأن بعض النقاد قد حمله على المقلوب وتقديره عنده : كيف لا يموت من يعشق ؟ وقال غيره : إن الكلام جار على طريقته ، والمراد به : كيف تكون المنية غير العشق . أى أن الأمر الذى يقدر فى النفوس أنه فى أعلى مراتب الشدة هو الموت ، ولما ذقت العشق فعرفت شدته عجبت كيف يكون هذا الأمر الصعب المتفق على شدته غير العشق ،وكيف يجوز ألا تعم علته حتى تكون منايا الناس كلهم به . وكان هذا أشبه بمراد أبى الطيب من حمل الكلام على القلب .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣١

ويناقش قوله تعالى : « ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » .[١]

فيقول :[٢] « إنما المراد بهذه الآية - والله أعلم - أن المفاتح تنوء بالعصبة أى تميلها من ثقلها ، وقد ذكر هذا الفراء وغيره .

ويلاحظ ابن سنان ملاحظة دقيقة فيقول : « ومن طريف التفسير للشعر أن يتأول ليقع الفساد فيه ، ولو حمل على ظاهره كان صواباً صحيحاً ، وما أعرف أعجب من حمل كافة المفسرين قول الفرزدق :

إنّ الذى سَمَكَ السَّماء بنى لنا بيتاً دَعائِمُه أعزُّ وأطولُ

على وجهين : أحدهما : أن يكون أعز وأطول بمعنى عزيزة طويلة ، والثانى أعز وأطول من بيتك يا جرير . فيتعسفون فى التأويل ، ومراد الشاعر أوضح من أن يخفى ، وأشهر من أن يجهل ، وهو أعز وأطول من السماء التى ذكرها فى أول البيت ، وإنما جاء بها لهذا الغرض ، وهذا مبالغة فى الشعر معروفة مستعملة وليست بالمكروهة ولا الغريبة[٣] . »

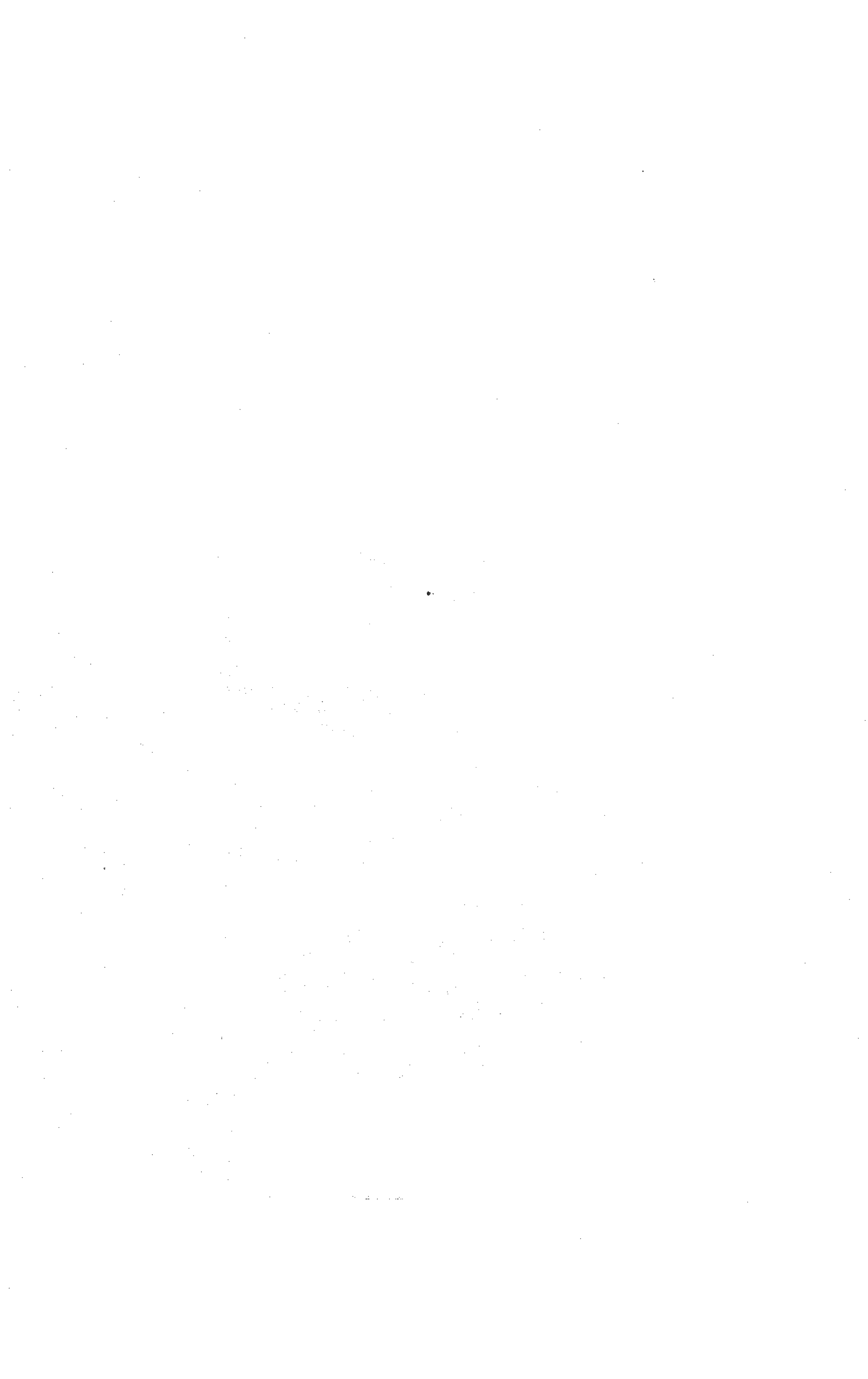
ولعل ذلك يوضح لنا أهمية التقديم والتأخير فى الكلام .

---

(١) سورة القصص ( آية ٧٦ ) .
(٢) سر الفصاحة ص ١٣١
(٣) المرجع السابق ص ١٣٣ — ١٣٤ .

# الفصل الخامس

## نظرات نقدية



سبق أن ذكرنا فى الفصول السابقة أن ابن سنان كان غرضه من تأليف كتابه هو معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها ، وشغل نفسه بالحديث عنها منذ فواتح كتابه حتى خواتيمه ، ولكن هناك بعض الموضوعات تعرض لها ، وذكرها فى ثنايا حديثه ، ووقف عندها وقفات قصيرة ، وقد أفردت لهذه الموضوعات فصلا لكى أتناولها بالدراسة والتحليل ، وأطلقت عليها « نظرات نقدية » ، وسأتناول فيها كلامه عن النظم والنثر والفرق بينهما ، وألفاظ الشعر ، ولغة المهندسين والمتكلمين . وما يتعلق بالشعر من فواتح القصائد وحسن التخلص ، وأخيرا أشير إلى حديثه عن لزوم مالا يلزم فى الشعر وأخذه على استاذه أبى العلاء فى ذلك .

وأبدأ بالكلام عن الشعر والفرق بينه وبين النثر .

## الفرق بين الشعر والنثر

### « ألفاظ الشعر ولغة المهندسين والمتكلمين »

عرف ابن سنان الشعر فقال : « أما حد الشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، وقلنا ـ كلام ـ ليدل على جنسه وقلنا ـ موزون ـ لنفرق بينه وبين الكلام المنثور الذى ليس بموزون ، وقلنا مقفى ـ لنفرق بينه وبين المؤلف الموزون الذى لاقوافى له وقلنا ـ يدل على معنى ـ لنحترز من المؤلف بالقوافى الموزون الذى لايدل على معنى [1] .

ويقول بأنه : « سمى شعرا من قولهم ـ شعرت ـ بمعنى فطنت ، والشعر الفطنة ، كأن الشاعر عندهم قد فطن لتأليف الكلام ، وإذا كان هذا مفهوما فأقل مايقع عليه اسم الشعر بيتان ، لأن التقفية لاتمكن فى أقل منها ، ولا تصح فى البيت الواحد ، لأنها مأخوذة من ـ قفوت الشىء ـ إذا تلوته ، وقد ذهب العروضيون إلى أن أقل مايطلق عليه اسم الشعر ثلاثة أبيات ، وليس الأمر على ماذهبوا إليه ، لأن الحد الصحيح قد ذكرناه ، وهو يدل على أن البيتين شعر ، فأما اعتلال بعضهم بأن البيتين قد يتفقان فى كلام لايقصد قائله الشعر ، ولا يتفق

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٣٧

ثلاثة أبيات فيما لايقصد مؤلفه الشعر فاعتلال فاسد ، لأنه إن كان يريد بالبيتين مثل قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومَنْزِلِ بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

فتوضِحَ فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجته من جنوبٍ وشمألِ

فذلك لايتفق إلا فى كلام يقصد به الشعر ، وإن كان يريد بالبيتين مثل مااستشهد به قول العامة - زمارة مليحة ، بقطعة صحيحة . فقد يتفق من هذا الجنس ثلاثة أبيات فى كلام لايقصد به الشعر . فالذى ذكره دعوى لادليل عليها [1] .

ومن عرضنا لقول ابن سنان فى تعريف الشعر يتضح لنا أنه يتفق مع القدامى والمحدثين فى تعريف الشعر فنرى قدامة بن جعفر (ت٣٣٧-ﻫ) يؤلف كتابه « نقد الشعر » مستلهما فيه كتاب أرسطاطاليس . يبدأه بتعريف الشعر فيقول : « إنه قول موزون مقفى يدل على معنى فقولنا : ( قول ) دال على أصل الكلام الذى هو بمنزلة الجنس للشعر ، وقولنا : ( موزون ) يفصله مما ليس بموزون ، إذ كان من القول موزون وغير موزون ، وقولنا : ( مقفى ) فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف ، وبين مالا قوافى له ولا مقاطع ، وقولنا : ( يدل على معنى ) يفصل ماجرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى » . [2]

ويعلق الدكتور « مندور » على تعريف قدامة للشعر فيقول : [3] إن هذا القول وإن لم تكن له علاقة بنظرية أرسطو فى « الشعر » وتعريفه له بأنه « محاكاة الطبيعة » إلا أنه تطبيق واضح لتعريفاته الشكلية التى تعتمد على المقولات .

وإذا كان ابن سنان قد عرف الشعر بالفطنة ، والشاعر هو من فطن لتأليف الكلام نرى اسحق بن ابراهيم سليمان بن وهب يعرف الشاعر فى كتابه (البرهان فى وجوه البيان ) قائلا : « الشاعر من شعر يشعر شعراً ، فهو شاعر . .

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٢٨.

(٢) نقد الشعر ص ١٥ .

(٣) النقد المنهجى عند العرب ص ٦٣

وإنما سمى شاعراً لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره ، وكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى » . [١]

ويعرف ابن رشيق الشاعر بقوله : « سمى الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة . ولم يكن له إلا فضل الوزن وليس بفضل عندى مع التقصير » . [٢]

ويتضح لنا من ذلك أن ابن سنان يتفق مع القدماء فى تعريف الشعر والشاعر وبعد أن عرف الشعر أخذ يفرق بينه وبين النثر فيقول : « . الفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال ، وبالتقفية إن لم يكن المنثور مسجوعا على طريق القوافى الشعرية ، والوزن هو التأليف الذى يشهد الذوق بصحته أو العروض ، أما الذوق فلأمر يرجع إلى الحس ، وأما العروض فلأنه قد حصر فيه جميع ماعملت العرب عليه من الأوزان . فتى عمل شاعر شيئاً لا يشهد بصحته الذوق وكانت العرب قد عملت مثله جاز له ذلك . كما ساغ له أن يتكلم بلغتهم . فأما إذا خرج عن الحس ، وأوزان العرب فليس بصحيح ولا جائز ، لأنه لا يرجع إلى أمر يسوغه ، والذوق مقدم على العروض . فكل ما صح فيه لم يلتفت إلى العروض فى جوازه . ولكن قد يفسد فيه بعض ما يصح بالعروض على المعنى الذى ذكرناه . كالزحافات المروية فى أشعار العرب المذكورة فى كتب العروض وهو الأصل الذى عملت العرب الأول عليه . وإنما العروض استقراء الأوزان حدث بعد ذلك بزمان طويل » . [٣]

فإذا كان ابن سنان يفرق بين الشعر والنثر بما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى . إلى جانب الذوق والحس الذى يقدمه على العروض فإن النقاد فى

---

(١) البرهان فى وجوه البيان لابن وهب : تحقيق د . أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى — الطبعة الأولى — بغداد ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ص ١٦٤

(٢) العمدة ١/٧٤

(٣) سر الفصاحة ص ٣٢٩

العصور المتأخرة يرون فى الشعر أموراً أخرى يعبرون عنها بالصور والأخيلة حينا . ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسى حينا آخر . وأخيراً يجردون[١] الشعر من المنطق ومايمت للعقل ونظام تفكيره بصلة ، فإذا حاولوا تعريف الشعر رأيت تباينا واختلافا . ولم نجدهم يستريحون أو يتفقون على تعريف جامع مانع .

ومما هو جدير بالذكر أن النقاد جميعا يتفقون آخر الأمر إلى صورة الشعر من أوزان وقواف ، ويرون فيها الخاصية الواضحة التى لاغموض فيها . ولا ابهام . ثم يلجأون أخيراً إلى موسيقى الشعر فيرونها تزيد من انتباهنا وتضفى على الكلمات حياة فوق حياتها . وتجعلنا نحس معانيه كأنما تمثل أمام أعيننا تمثيلا عمليا واقعياً ، هذا إلى أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال . وتجعله مصقولا مهذبا تصل معانية إلى القلب بمجرد سماعه . وكل هذا مما يثير منا الرغبة فى قراءته وانشاده وترديد هذا الإنشاد مرارا وتكراراً .

ولعل هذه النظرة الحديثة هى نفس نظرة ابن سنان فى تفضيله النظم على النثر فيقول : « وأما التفضيل بين النظم والنثر . فالذى يصلح أن يقوله من يفضل النظم أن الوزن يحسن الشعر . ويحصل للكلام به من الرونق مالايكون للكلام المنثور . ويحدث عليه من الطرب فى إمكان التلحين والغناء به مالا يكون للكلام المنثور . ولهذه العلة ساغ حفظه أكثر من حفظ المنثور . حتى لو اعتبرت أكثر الناس لم تجد فيهم من يحفظ فصلا من رسالة غير القليل . ولا تجد فيهم من لايحفظ البيت أو القطعة إلا اليسير . ولولا ماانفرد به من الوزن الذى تميل اليه النفوس بالطبع لم يكن لذلك وجه ولا سبب » .[٢]

ونرى ابن طباطبا العلوى يستهل كتابه بان الشعر يفترق عن النثر بوزنه وأنه لابد له من طبع وذوق قبل الوقوف على عروضه[٣] .

ويذكر ابن سنان أن الشعر[٤] يدخل فى جميع الأغراض كالنسيب ،

---

(١) موسيقى الشعر ص ٩ — ١٠

(٢) سر الفصاحة ص ٣٢٩

(٣) عيار الشعر ص ٣ .

(٤) سر الفصاحة ص ٢٤٠

والمديح والذم والوصف والتحلي ، والنثر لايدخل فى كل ذلك ، فالتشبيب مثلا لايحسن فى غير الشعر ،وكذلك غيره من الأغراض، وماصلح لجميع ضروب الكلام وصنوفه أفضل مما اقتصر على بعضه .

وأما أبو هلال العسكرى فيميز الشعر من النثر ويفضله عليه لعدة أسباب(١) :

أولها : طول بقائه على أفواه الرواة ، وامتداد الزمان الطويل به . وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض ، وهذه خاصة له فى كل لغة ، وعند كل أمة ، وطول مدة الشيء من أشرف فضائله .

ثانيها : ومن مميزات الشعر استفاضته فى الناس ، وبعد سيره فى الآفاق ، وليس شيء أسير من الشعر الجيد ، وهو فى ذلك نظير الأمثال .

وقد قيل : لاشيء أسبق إلى الأسماع ، وأوقع فى القلوب ، وأبقى على الليالى والأيام من مثل سائر ، وشعر نادر .

ثالثها: أنه ليس هناك شيء يقوم مقامه فى المجالس الحافلة . والمشاهد الجامعة إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد . ولايفوز أحد من مؤلفى الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة . ولايهتز ملك ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتز للشعر ويرتاح لسماعه .

رابعها : أن ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها ، وحلها وغريبها من الشعر ، وكذلك الشواهد تنزع من الشعر . ولولاه لم يكن على مايلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول عليه السلام شاهد .

خامسها : أننا لم نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعار العرب . فالشعر ديوان العرب . وخزانة حكمتها . ومستنبط آدابها ومستودع علومها .

---

(١) الصناعتين ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

ثم يعود ابن سنان فيذكر أن النثر يعلم فيه أمور لاتعلم فى النظم كالمعرفة بالمخاطبات وبينة الكتب والعهود والتقليدات . وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم . ويطلع على خفى أسرارهم . وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة . والانتفاع بها فى الأغراض طاهر . والشعر فضل يستغنى عنه . ولا تقود ضرورة إليه . وان منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدراً عاليا . ولا ذكراً جميلا . والكاتب ينالى بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة . وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لاتوصل صاحبها إلى ذلك . وإن أكثر النظم إذا كشف وجد لايعبر عن جد ولا يترجم عن حق . وإنما الحذق فيه الإفراط فى الكذب . والغلو فى المبالغة وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وأحوال مشاهدة ، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتقريب . وقد يتسع الكلام فيما لايخرج عن هذا الفن ، وهذه الجملة كافية فى مثل هذا الموضع[1] .

ولعلنا نوافق ابن سنان على رأيه فى تفضيل النثر على النظم . وذلك لأن النظم لايعبر عن جد ، وأن الحذق فيه إفراط فى الكذب . ونرى ابن رشيق القيروانى يؤكد ذلك فيقول[2] :

أكثر الشعر قدبنى على الكذب ، والاستحالة من الصفات الممتنعه ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والالفاظ الكاذبة من قذف المحصنات ، وشهادة الزور وقول البهتان لاسيما الشعر الجاهلى الذى هو أقوى الشعر وأفحله ، وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى ، هذا هو الذى سوغ استعمال الكذب ، وغيره مما جرى ذكره فيه ، وقيل لبعض الفلاسفة[3] فلان يكذب فى شعره ، فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الانبياء .

وبعد أن تحدث ابن سنان عن الشعر والنثر وفرق بينهما ذكر أنه يجب

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٤٠

(٢) العمدة ١/ ١٠

(٣) الصناعتين ص ١٣٧ .

الا يستعمل[١] فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم ، لأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم، وكلام أصحاب تلك الصناعة . وبهذا شرف كلام أبى عثمان الجاحظ ، وذلك أنه إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتاب وإذا صنف فى الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين . فكأنه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره .

ويستشهد على ذلك بما قاله أبو تمام :

مودةٌ ذهبٌ أثمارها شبهٌ    وهمةٌ جوهرٌ معروفها عرضُ[٢]

فالشاعر قد استعمل كلمتى الجوهر والعرض وهما من ألفاظ المتكلمين .

ويقول الجاحظ : « إن لكل صناعة ألفاظا قد حصلت لأهلها . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام والجار أو فى مخاطبة أهله . . . أو فى حديثه إذا حدث أو فى خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجاب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل »[٣] .

ويقول . « ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ فى الأرض وصاحب كلام منثور وكل شاعر فى الأرض وصاحب كلام موزون فلابد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ليديرها فى كلامه ، وإن كان واسع العلم غزير المعانى كثير اللفظ[٤] » .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٥ — ١٩٦

(٢) من قصيدة له فى العتابية ، والشبه : النحاس الأصفر .

(٣) الحيوان ٣٦٨/٣

(٤) المرجع السابق ٣٦٦/٣

وقد رد ابن الأثير على ماقاله ابن سنان فقال : «وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة[١].

إن الذى تكرهون منه هو الذى يشتهيه قلبى

وسأبين فساد ماذهب اليه فأقول : «أما قوله إنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة فهذا لمسلم اليه ، ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لاضابط له يضبطه ، ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر ، أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذى قصده ألا ترى قولى أبى تمام فى الاعتذار :

فان يك جرم عن أوتك هفوة على خطأ منى فعذرى على عمدى

فإن هذا من أحسن ماجىء فى باب الاعتذار عن الذنب ، وكان ينبغى له على ما ذكره ابن سنان أن يترك ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا الخطأ والعمد اللتان هما من أخص ألفاظ الفقهاء ، وكذلك قول أبى الطيب المتنبى :

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذا أتيت مؤخرا

وهذا من المعانى البديعه وما كان ينبغى لأبى الطيب أن يأتى فى مثل هذا الموضع بلفظة فذلك التى هى من ألفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لا يتم إلا بتلك اللفظة موافقه لابن سنان فيما رآه وذهب اليه وهذا محض الخطأ وعين الغلط ، وأما ما أنكره على أبى تمام فى قوله :

---

(١) المثل السائر ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

مودةٌ ذهبٌ أثمارها شبهٌ وهمة جوهر معروفها عرض

فإن هذا البيت ليس منكراً لما استعمل فيه من لفظتى الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين ، بل لأنه فى نفسه ركيك لتضمنه لفظة الشبه فانها لفظة عامية ركيكية ، وهى التى أسخفت بالبيت بجملته ، ورب قليل أفسد كثيراً . وأما لفظتا الجوهر والعرض فلاعيب فيهما ولا ركاكة عليهما .

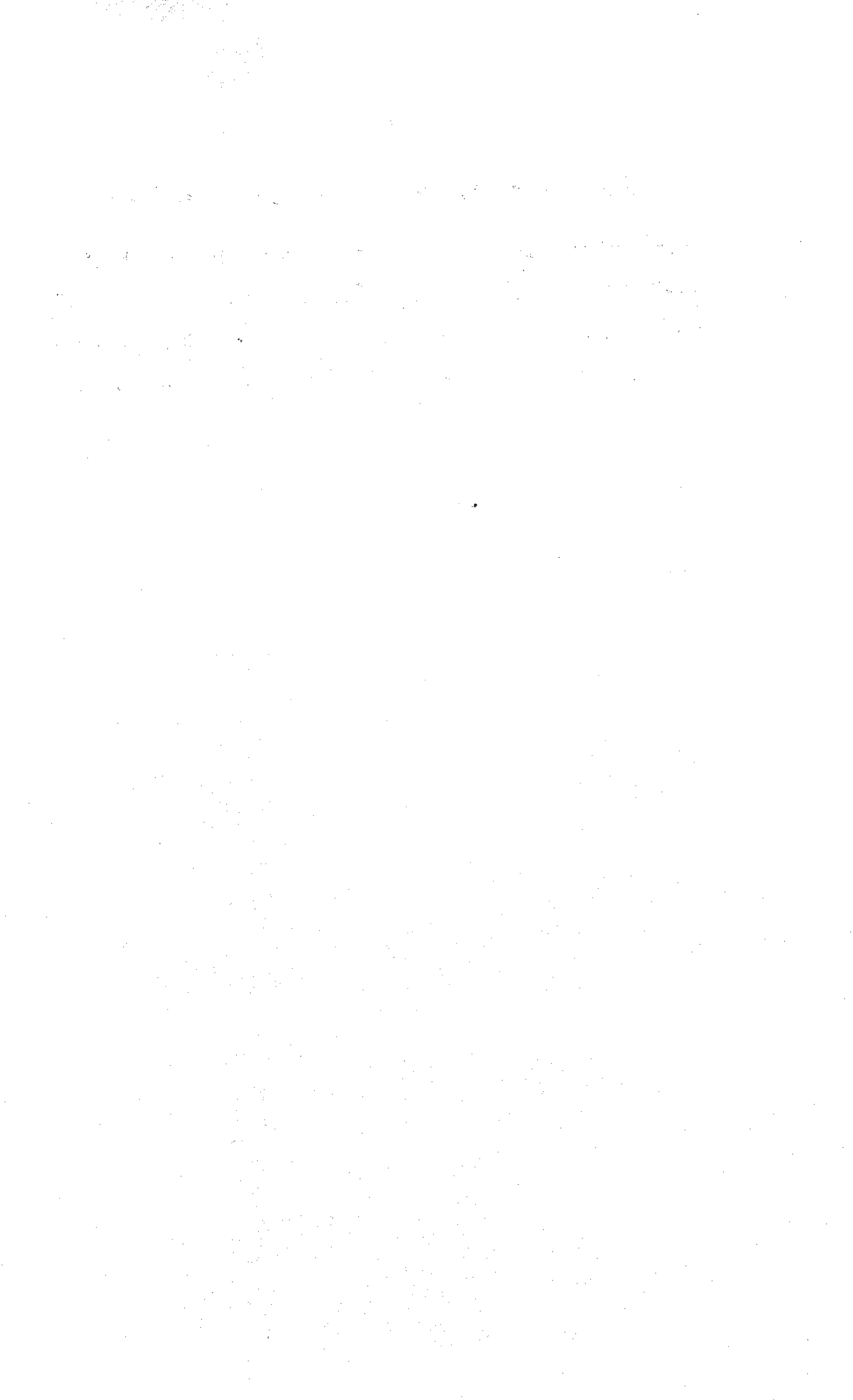
وهكذا يبطل ابن الأثير ماذهب اليه ابن سنان لأن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم ، فلامانع فيها من استعمال ماتدعو إليه الحاجة من معانى العلوم . ولكنه يسلم له فى أنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو صناعة أن يستعمل ألفاظ أهلها .

ومن أطرف ماذكره ابن سنان أنه حكى ، أن بعض المهندسين حضرته الوفاة فقال : ياعالما بجذر الأصم ومحيط الدائرة ، لاتقبض روحى إلا على خط مستقيم وزوايا قائمة (١)

وننتقل للحديث عن فواتح القصائد وحسن التخلص .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٧



# فواتح القصائد وحسن التخلص

تكلم ابن سنان فى كتابه عن فواتح القصائد ، وذكر أن الابتداء فيها يحتاج إلى تحرز حتى لا يستفتح بلفظ محتمل ، أو كلام يتطير منه[1] .

فالقصيدة ينبغى أن تبتدىء بأبيات شيقة محببة إلى النفس تشجع القارىء على قراءتها ، كما يجب تجنب الألفاظ والمعانى التى يتطير منها ، ويستشنع سماعها ، ويذكر ابن سنان ما رواه ذو الرمة حينما أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته البائية فلما ابتدأها بقوله :

ما بال عينك منها الماء ينسكب     كأنه من كلىً مفرية سربُ

فقال هشام : بل عينيك ( وكانت عين هشام تدمع دائماً فظن أنه يعرض به ) . كما استشهد ابن سنان بما رواه أبو نواس عندما أنشد الفضل بن يحيي قصيدته :

. أربع البلى إن الخشوع لبادى     عليك وإنى لم أخنك ودادى[2]

فقد تطير الفضل من هذا الابتداء ، فلما انتهى أبو نواس فى القصيدة إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم     بنى برمك من رائحين وغاد

استحكم تطير الفضل بن يحيي ، ولم يمض الأسبوع حتى نكب بنو برمك وقتل جعفر بن يحيي .

ويقول ابن سنان إن بعض الناس يروى أن أبا عبادة أنشد يوسف بن محمد ابن يوسف الثغرى قوله :

---

(١) سر الفصاحة ص ٢١٥

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦ — ٢١٧

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حى تزم أباعره

فقال له يوسف : الويل لك والحرب ، والرواية المشهورة — له الويل — وهى أقرب وأصلح .

وإذا كنا قد تكلمنا عن فواتح القصائد فلعل ذلك يجرنا إلى الحديث عن حسن التخلص فى الشعر ،يقول ابن طباطبا العلوى «أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فان قدم بيتاً على بيته دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ،وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان . وصواب تأليف . ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجاً لطيفاً على ماشرطناه فى أول الكتاب ، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً كالأشعار التى استشهد نا بها فى الجودة والحسن ، واستواء النظم ، لا تناقض فى معانيها ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها تقتضى كل كلمة ما بعدها ، ويكون مابعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها[1] .

ويقول ابن سنان[2] ومن الصحة صحة النسق والنظم ، وهو أن يستمر فى المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالاول وغير منقطع عنه ، ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح ، فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم فى النسيب متعلقاً بكلامهم فى المدح لا ينقطع عنه ، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة ، وإنما كان أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعا ، وإما مبنياً على وصف الإبل التى ساروا إلى الممدوح عليها ،ومما يستحسن من خروج المحدثين قول أبى عبادة البحترى يصف الروض :

---

(٣) عيار الشعر ص ١٢٦ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٧ .

(١) سر الفصاحة ص ٣١٥

شقائق يحملن الندى فكأنه . دموع التصابى فى خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أرغلت تليها بتلك البارقات الرواعد

ويقول : « ومن الخروج المنقطع قول أبى تمام :

لو رأى الله أن فى الشيب فضلا جاورته الأبرار فى الخلد شيبا
كل يوم تبدى صروف الليالى خلقاً من أبى سعيد غريبا[1]

وأمثال هذا للمتقدمين كثير .

ويرى أنه إذا ابتدىء بالمديح أو بغيره من الأغراض فالأحسن أن يكون الابتداء دالا على المعنى المقصود ، كما ابتدأ أبو الطيب المتنبى قصيدته التى مدح بهـا سيف الدولة واعتذر له عن ظفر الروم بجيشه وقتلهم وأسرهم جماعة منهم فقال :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

فالشاعر عرقد ابتدأ بغرضه من أول القصيدة .

ويقول ابن رشيق القيروانى :[2] « وأولى بالشعر أن يسمى تخلصاً ماتخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ فى غيره ثم يرجع إلى ماكان فيه كقول النابغة الذبيانى آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وكفكفت منى عبرة فرددتها إلى النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع

ثم تخلص إلى الاعتدال فقال :

ولكن هما دون ذلك شاغل بمكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه أتانى ودونى راكس فالفواجع

---

(١) سر الفصاحة ص ٣١٧ .
(٢) العمدة ١/١٥٨

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة      من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد فى ليل التمام سليمها      لحلى النساء فى يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها      تطلقه طورا وطوراً تراجع

فالشاعر قد وصف الحية والسليم الذى شبه به نفسه ماشاء ثم تخلص إلى الاعتذار الذى كان فيه فقال .

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى      وتلك التى تستك منها المسامع

ثم اطرد له ما شاء من تخلص حتى انتهت القصيدة .

وتكلم صاحب خزانة الادب عن حسن التخلص فقال : « هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل ، يختلسه اختلاساً رشيقاً ، دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الاول إلا وقد وقع فى الثانى لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا فى قالب واحد ، ولا يشترط أن يتعين المتخلص منه بل يجرى ذلك فى أى معنى كان ، فان الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف طلل بال أو ربع خال أو معنى من المعانى يؤدى إلى مدح أو هجو أو وصف فى حرب ، أو غير ذلك ، ولكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح »[1] .

وقد فرق بين التخلص والاستطراد فقال : « إن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الاول ، أو قطع الكلام فيكون المستطرد به آخر كلامه والامران معدومان فى التخلص فإنه لا يرجع الى الأول ولا يقطع الكلام بل يستمر على ما يتخلص اليه ، وهذا النوع — أعنى حسن التخلص — اعتنى به المتأخرون دون القدماء ومن جرى مجراهم من المخضرمين ، ولكنه لم يفتهم ، فإنهم أوردوا لزهير فى هذا الباب قوله :

---

(١) خزانة الأدب ص ١٨٥ .

إن البخيل ملوم حيث كان ولـ ـكن الكريم على علاته هرم

وبعد أن ذكر الحموى هذا البيت قال(١) : « انظر إلى هذا العربى كيف أحسن التخلص من غير اعتناء فى بيت واحد ، وهذا هو الغاية القصوى عند المتأخرين الذين اعتنوا به ، وعلى كل تقدير فإن كلام العرب استنبط كل فن ، فإنهم ولاة هذا الشأن ، ولكنهم كانوا يؤثرون عدم التكلف . ولا يرتكبون من فنون البديع الا ماخلا من التعسف وذلك قول أبى نواس وأجاد إلى الغاية .

وإذا جلست الى المدام وشربها فاجعل حديثك كله فى الكاس

وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس

وإذا أردت مديح قوم لم تمن فى مدحهم فامدح بنى العباس

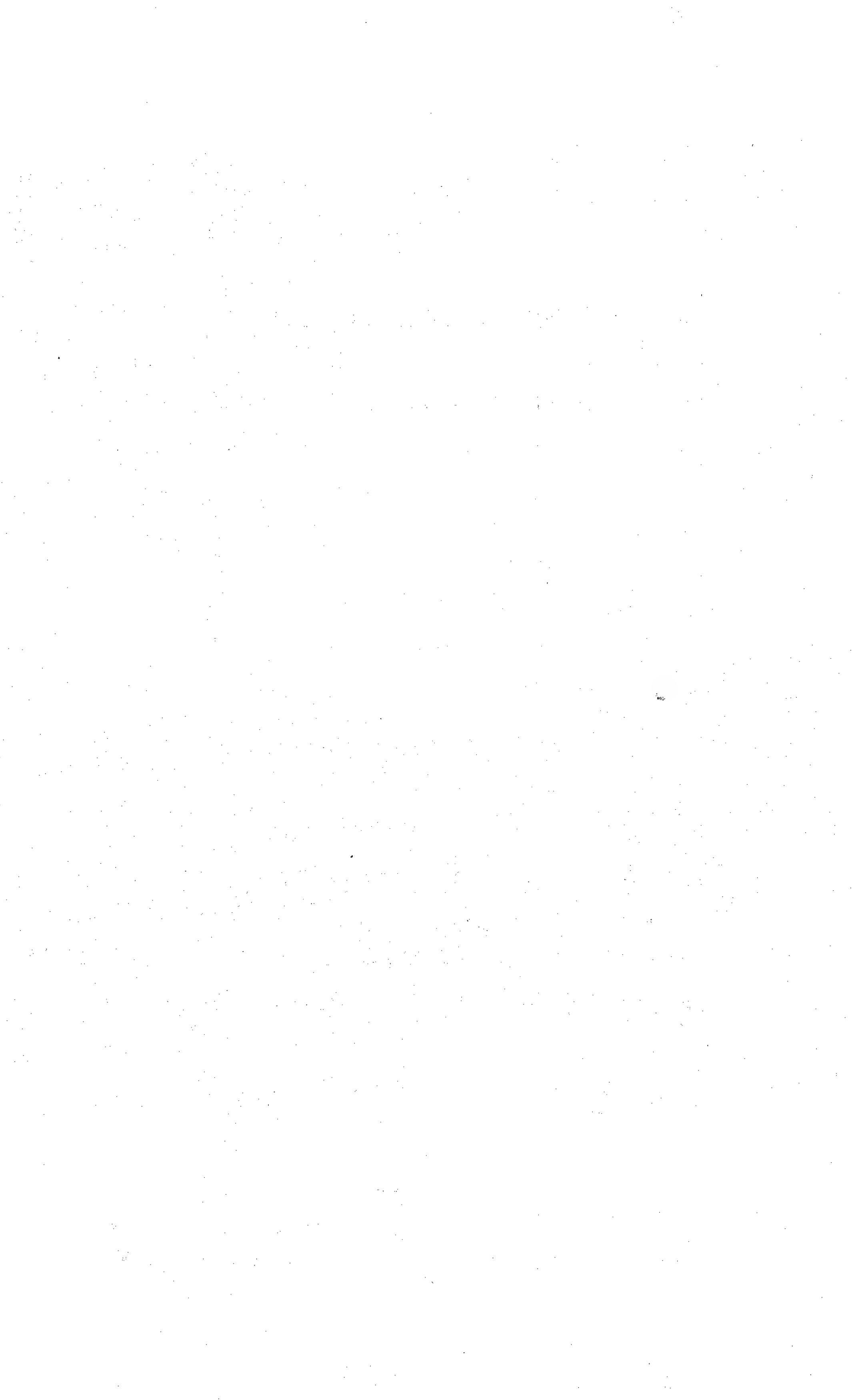
يعلق صاحب الخزانة على هذه الأبيات فيقول . « انظر هذه الأبيات ترى الشاعر يثب من شطره الأول إلى الثانى وثبة تدل على رشاقته وقوته وتمكنه فى هذا الفن » .

فإذا أتقن الشاعر حسن التخلص والخروج من معنى إلى معنى خروجا لطيفاً بدت القصيدة غاية فى الجودة والحسن واستواء النظم .

وابن سنان قد تنبه إلى حسن الابتداء فى القصيدة ، وطالب بالتحرز فيه ، واختيار الالفاظ التى لا يتطير منها ، وتجنب الألفاظ التى يستشنع سماعها ، إلى جانب ذلك حديثه عن حسن التخلص والخروج من معنى إلى معنى ، ولعلنا بذلك نكون قد ألقينا الضوء على فواتح القصائد ، وما يجب أن تبدأ به القصيدة من ألفاظ ، وحسن التخلص فى المطلق ، وننتقل إلى ظاهرة أخرى وهى اللزوم فى الشعر .

---

(٢) خزانة الأدب ص ١٨٥ .



# لزوم ما لا يلزم

لزوم مالا يلزم ويسمى أيضاً الالتزام والاعنات والتضييق ، والتشديد ، والتضمين ، وسمى بالتضمين لتضمين القافية ما ليس يلزمها . ويسميه نقاد الغرب القافية الغنية ، وجمالها عندهم ناشىء عن ندرتها وأسماؤه كلها ناطقة بما يأخذ به صاحبه نفسه من عسر القيود ، وثقل المئونة ، وتحجير ما وسعه الله عليه ، وتكلف مالو تجنبه ، لم تلحقه تبعة ، ولا أدركه عيب ، ولا وقع فى قصور أو تقصير »[1] .

والواقع أن معنى اللزوم هو أن يلتزم الشاعر فى شعره أو الناثر فى نثره قبل حرف الروى من البيت أو الفاصلة من النثر ما ليس بلازم فى مذهب السجع . أى أن هذا الالتزام زيادة لا تتطلبها التقفية سواء أكانت فى الشعر أم فى النثر فلو لم توجد لاستقام بدونها ، ولم يقع عليه ضيم بتركها ، ولكن جىء بها مبالغة فى التناسب والتماثل وغلوا فى التزيين والتنميق[2] :

ويقول ابن سنان : « وقد التزم بعض الشعراء فى القوافى إعادة مالا يلزمه طلبا للزيادة فى التناسب ، والإغراق فى التماثل كقول الحطيئة .

ألا من لقلب عارم النظرات    يقطع طول الليل بالزفرات
إذا ما الثريا آخر الليل أعنقت    كواكبها كالجزع منحدرات[3]

فالشاعر قد التزم الراء فى جميعها قبل حرف الروى وهى غير لازمة .

ويذكر ابن سنان أن شيخه أبا العلاء ذهب إلى أن قصيدة كثير عزة التى مطلعها :

---

(١) البلاغة الفنية ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٢ -

(٣) سر الفصاحة ص ٢١١

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا  قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت

فالشاعر قد لزم اللام فى جميعها . فلما سأل ابن سنان أستاذه عن البيت الذى يروى فيها وهو :

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى
وجن اللواتى قلن عـــزة جنت

فقال إن هذا البيت ليس من القصيدة .

ويقول ابن سنان : « كان على بن العباس الرومى يلتزم هذا كثيرا ، وهو موجود فى شعره ، ونظم أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان شعره المعروف بلزوم مالا يلزم على هذه الطريقة . وكذلك أكثر كلامه المنثور سلك فيه هذا المنهج[1] .

ولعلنا بذلك قد اتضح لنا معنى اللزوم أو الالتزام فى الشعر والنثر وقد استعمله كثير من الشعراء — كما ذكر ابن سنان — منهم الحطيئة وكثير عزة ، والبحترى وابن الرومى وأبو العلاء المعرى ، ونجـــده بصورة أوضح فى لزومياته .

وقد أخذ ابن سنان عليهم ذلك فيقول : « وليس يغتفر للشاعر إذا نظم على هذا الفن لأجل ما ألزم نفسه مالا يلزمه شىء من عيوب القوافى ، لأنه إنما فعل ذلك طوعاً واختياراً من غير إلجاء ولا إكراه . ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق وأقرب السبل . وليس بنا حاجة إلى المتكلف المطرح ، وإن ادعى علينا قائله أن مشقة نالته وتعباً مر به فى نظمه »[2] .

ومن يقرأ لزوميات أبى العلاء وينظر فيها نظرة فنية من حيث الصياغة والتنسيق يلاحظ أن جوانب كثيرة منها واهية ، إذ استغرقهـــا أبو العلاء

---

(١) سر الفصاحة ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

بالتكرار حتى كاد أسلوبه أن يسقط فى غير موضع من مواضعها وإن كان قد وفق فى بعض أبياتها . والواقع أن أبا العلاء شغل نفسه بعقد ولوازم غريبة فى لزومياته ، فهو يصعب على نفسه الممرات إلى شعره ، ويتقيد بلوازم يتبعها فى صناعته . وقد قسم الدكتور شوقى ضيف[1] هذه اللوازم التى وردت فى شعر أبى العلاء الى نوعين : لوازم دائمة ، ولعل أهم هذه اللوازم ما أشار اليه أبو العلاء فى مقدمة ديوانه إذ يقول : وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كلف ، الأولى أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أنه يجىء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل روى فيه شىء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من حروف «[2] .

وبجانب هذه اللوازم الدائمة كانت ترافقها لوازم عارضة[3] تظهر من حين إلى حين ويقصد بهذه اللوازم العارضة ما كان يجنح إليه أبو العلاء من تصنع لألفاظ الثقافات المختلفة من عروض ونحو وفقه ، ولعله أول من وسع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون . ومن قبله كان المتنبى يتصنع لذلك ، ولكنه لم يسرف فيه إسراف المعرى الذى ذهب يطرز شعره بألفاظ العلوم والفنون ، بل إننا لنراه يدخل مسائلها فى آرائه ، وكأنه يريد منها الحجة والدليل على مايذهب اليه من فكرة أو رأى . وانظر إليه يستخدم العروض فى التدليل على أفكاره فيقول :

بقائى الطويل وغى البسيط وأصبحت مضطرباً كالرجز

ومما هو جدير بالذكر أن الشعراء قبل المعرى كانوا يلتزمون رويا واحداً فى شعرهم[4] أما هو فقد رأى ذلك شيئا سهلا . وهو يريد الصعوبة والتعقيد

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٩٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٨

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٣ .

فاشترط على نفسه أن ينظم على رويين ، وكأنه أحس بأن النظم لايزال سهلا ، فاخذ فى التعقيد حتى انتهى الى الجناس بين أول البيت وآخره .

ومهما يكن من شيء فاللزوميات ليست ديوانا بالمعنى المألوف عند العرب لما فيها من التكلف والتكرار والضعف ، وقد تنبه المعرى إلى ذلك وسماها فى مقدمته لها تأليفا ، ومرة أخرى سماها كتاباً ، ولعله قد استعار لها كلمة اللزوميات من كتب المناطقة لتدل على ما فيها من نسب ومعادلات بين الألفاظ والقوافى .

والالتزام على ثلاثة أقسام[1] :

الأول : التزام الحركة وحدها كقول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها    يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها    لاوسع مما كان فيه وأرغد

إذا ابصر الدنيا استهل كأنه    بما سيلاقى من أذاها يهدد

فالشاعر قد التزم الفتح ( الحركة ) قبل حرف الروى وهو أل ( د ) فى آخر الأبيات .

الثانى : التزام الحرف : وهو إما بحرف واحد ، وإما بحرفين وإما بثلاثة أحرف .

فأما التزام الحرف الواحد قوله تعالى « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » فالراء بمنزلة حرف الروى ، ومجيء الهاء قبلها فى الفاصلتين ( لزوم ما لايلزم ) لصحة السجع بدونها ، لو حولناه إلى سجع آخر فى غير القرآن الكريم نحو : فلا تقهر ولا تسخر » .

وأما التزام الحرفين مثل قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور » فالتزم فيها الطاء والواو قبل حرف الراء .

---

(١) البلاغة الفنية ص ٢ — ٤

ويكون الالتزام بثلاثة أحرف كقوله تعالى : « فاذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » فقد التزم فيها الصاد والراء والواو قبل النون.

الثالثة التزام الحرف والحركة معا كقول عبد الله بن الزبير يمدح عمرو بن عثمان بن عفان :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى      أيادىَ لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه      ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه      ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خَلتى من حيثُ يخفى مكانها      فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فالشاعر فى هذه الأبيات قد التزم الحرف والحركة . فحرف الروى وهو ( التاء ) قد جاء قبله بلام مشددة مفتوحة [١] .

ومما تجدر الاشارة إليه أن اللزوم سمة شعرية ، ولدت مع الشعر ، وسايرته فى جميع عصوره ، وربما كثر فى شعر هذا وقل فى شعر ذاك . وكان يسميه ابن المعتز . « إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ماليس له [٢] » .

وهو نوعان :

منه المطبوع الجيد كقول أبى العلاء :

يقولون فى البستان للعين لذة      وفى الخمر والماء الذى غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها      فنى وجه من تهوى جميع المحاسن [٣]

ومنه الردىء كقول المعرى أيضاً :

بنتُ عن الدنيـــا ولا بنتَ لى      فيها ، ولا عِرْسٌ ، ولا أُختُ
وقـــد تحمَّلت من الوِزْر ما      تعجـز أن تحمله البُخْتُ [٤]

---

(١) البلاغة الفنية ص ٤ .
(٢) البديع ص ٧٤ .
(٣) البلاغة الفنية ص ٩ — ١٠
(٤) البخت : الأبل الخراسانية

إن مدحونى ساءنى مدحهم وخلت أنى فى الثرى سُخْت

فالشاعر يريد أن يقول بأنه ( مقطوع من شجرة ) وقد عبر عن ذلك بهذه الأبيات الرديئه للزومه فيها مالا يلزم .

ويقول ابن سنان : « ومما يجب أن يعتمد فى القافية ألا تكون الكلمة إذا سكت عليها كانت محتملة لمعنى يقتضى خلاف ماوضع الشعر له ، مثل أن يكون مديحا فيقتضى بالسكوت عليها وقطع الكلام بها وجها من الذم أو معنى يتطير منه الممدوح أو ما يجرى هذا المجرى »[١] .

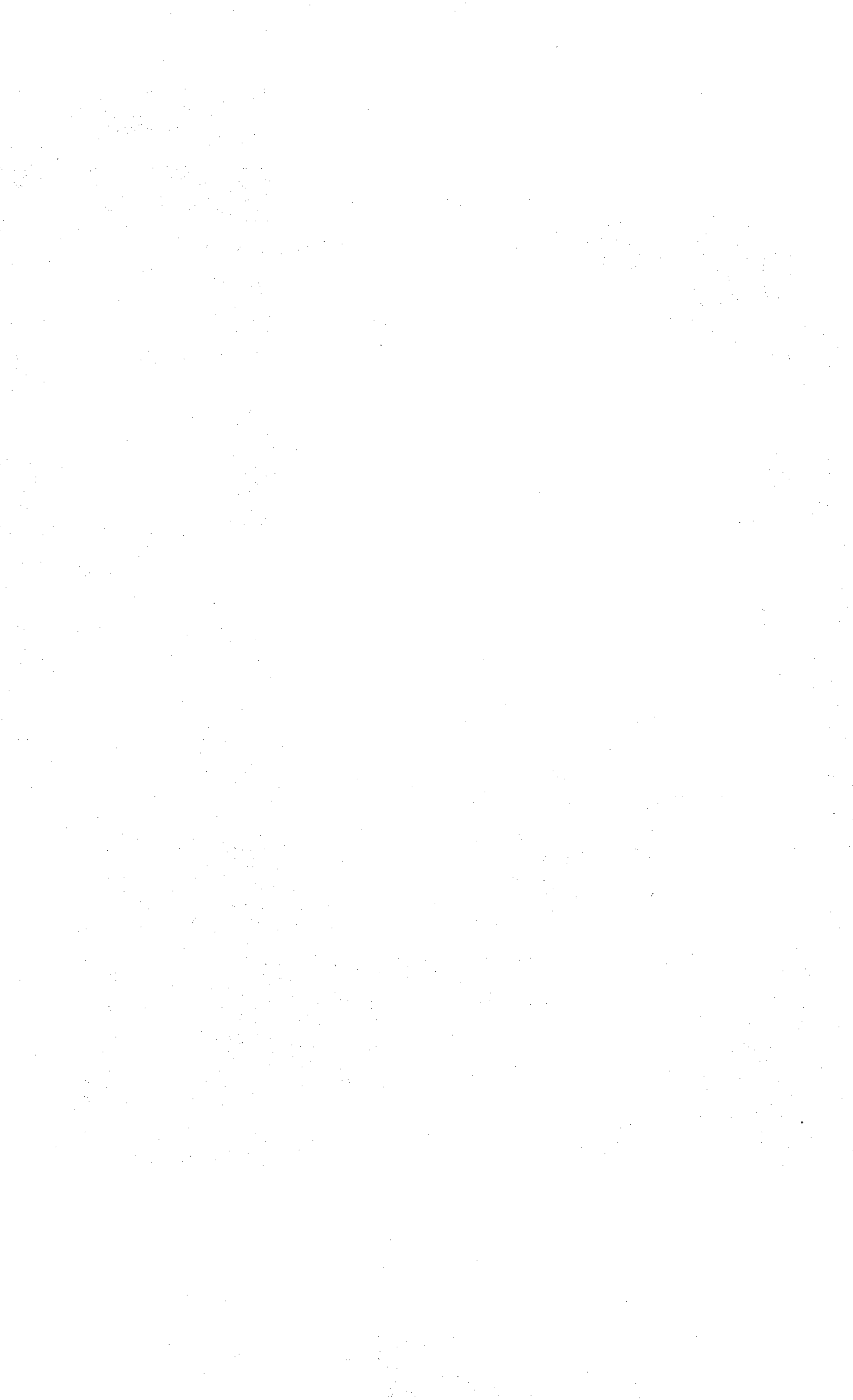
ويجب ألا يعذب عن بالنا أن اللزوم عمل فنى يعد من أشق صناعة الكلام مذهبا وأبعدها مسلكا ، وقد ذكر ذلك ابن الأثير فى كتابه صراحة »[٢] .

وقد ورد اللزوم كثيرا فى القرآن الكريم ، وأشار إلى ذلك الحموى فى خزانته[٣] ، وخالفه فى ذلك الرأى ابن الأثير .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢١٤ .
(٢) المثل السائر ص ١٦٣
(٣) خزانة الأدب ص ٥٣ .

# الخـاتمة



# الخاتمة

حاولت فى الصفحات السابقة أن أقدم دراسة وتحليلا لكتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى : ولست أزعم أنى قد أتيت بجديد خارق فى هذا البحث ، وكل ما فى الأمر أنه تأتى لى أن أنعم النظر فى حياة رجل أهملته الدراسات البلاغية على الرغم من أفكاره التى أصبحت أصولا ثابتة إلى يومنا هذا .

وقد مهدت لذلك بمدخل تحدثت فيه عن حياة ابن سنان وثقافته وآثاره . وفيه اتضح لنا أنه ابن أحد الأشراف ممن كانوا ينزلون بعزاز من أعمال حلب ، وكان واسع الثقافة . أخذ العلم والأدب عن علماء عصره وفى مقدمتهم أبو العلاء المعرى .

وكان شاعراً بارعاً ، من الشعراء الذين عنى البارودى بالاختيار من أشعارهم وكان يرى رأى الشيعة ، وكثيراً ما كان يصور هذا الجانب العقيدى فى شعره . وقد ولاه الأمير محمود بن نصر بن صالح بن مرداس على قلعة عزاز . إلا أن ولاءه للدولة الفاطمية الشيعية جعل الأمير محمود بن نصر يفكر فى الخلاص منه ، وكان ذلك على يد وزيره أبى نصر بن النحاس سنة ٤٦٦ للهجرة .

وقد وضحت سيرة هذا الرجل بعد بحث طويل فى كتب التاريخ والطبقات ، وتحدثت عن الكتب البلاغيه قبله للتعرف على جهوده وإضافاته فى البلاغة ، مشيراً إلى مابلغه العرب فى الجاهليه من مرتبة رفيعة فى البلاغة والبيان ، ومصوراً ماكان فى عصر بنى أمية من الخطابة بجميع ألوانها من سياسية ، وحفلية ، ووعظية ، وماكان من الأسواق الأدبية ، كالمربد والكناسة ، . إلى أن يأتى العصر العباسى الأول . . . فنرى كثيراً من الفرس والموالى قد أتقنوا العربية وحذقوها ، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم وأخذت تؤلف فى البلاغة كتب مختلفة فى مقدمتها كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحى (ت . ٢٣٢ للهجره ) ، وقد جمع فيه كل ما عرف قبله من نظرات نقدية متنوعة ، إلى جانب المصطلحات النقدية التى كثر تداولها بين النقاد .

ويؤلف ابن قتيبة ( ت . ٢٧٦ هـ ) كتابه « الشعر والشعراء » ، وتحدث فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى شعرهم وقبائلهم . ثم عرضت لابن المعتز ( ت . ٢٩٦ هـ ) ، وهو أول من صنف فى البديع كتابا ، أثبت فيه أن البديع موجود من قديم فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الجاهليين والإسلاميين . ويأتى قدامة بن جعفر ( ت . ٣٢٧ هـ ) بكتابه « نقد الشعر » ، وقد تمثل كل ما كتب قبله فى مباحث البلاغة عند الجاحظ وابن المعتز وغيرهما من سابقيه .

إلى جانب ذلك ، كان هناك دراسات نقدية لبعض المتكلمين الذين بحثوا مباحث واسعة فى إعجاز القرآن ، من حيث بيانه وبلاغته على نحو ما اتضح فى رسالة « النكت فى إعجاز القرآن » لعلى بن عيسى الرمانى ( ت . ٣٨٦ هـ ) وهو أحد أعلام المعتزلة فى عصره وقد قسم البلاغة إلى ثلاث طبقات : عليا ، ووسطى ، ودنيا . فالعليا هى بلاغة القرآن الكريم ، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم فى البلاغة .

ويلاحظ فى هذه الفترة امتزاج كتب النقد بالبلاغة ، إذ دارت فى جملتها على البحث فى معانى الشعراء وألفاظهم ، ومهارتهم فى استخدام فنون البديع ، وخير مايصور ذلك كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا العلوى ( ت ٣٢٢ هـ ) وأهم مبحث عنده هو التشبيه ، إلا أنه نبـــه إلى فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة .

أما الآمدى ( ت ٣٧١ هـ ) فيعقد موازنة واسعة بين أشعار أبى تمام والبحترى . وما يتصل بها من المعانى والصور البيانية والبلاغية ، ويفصل القول فى الاستعارة القبيح منها والحسن خاصة عند الشاعرين .

ويأتى بعد ذلك كتاب الوساطه بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ( ت . ٣٩٢ هـ ) ، ونستطيع أن نلخص المنهج الذى اتبعه الجرجانى فى جملة واحدة . وهو : أنه رجل يقيس على الأشباه والنظائر ، وعلى هذا الأساس بنى معظم وساطته ، وقد قدم لبحثه بأغلاط الشعراء ، قدماء

وعدثين فى ألفاظهم ومعانيهم » ثم تحدث بعد ذلك عن البديع ووجوهه وصوره مبتدئا بالاستعارة .

ومن الكتب التى صنفت فى القرن الرابع الهجرى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ( ت ٣٩٥ هـ ) وقد افتتحه بمقدمة نوه فيها بعلم البلاغة وأنه ضرورى لفهم إعجاز القرآن الكريم ، وقسمه إلى عشرة أبواب .

ثم تأتى محاولة أخرى هى كتاب « إعجاز القرآن للباقلانى » ( ت ٤٠٣ هـ ) وهو من أعلام المتكلمين الأشاعرة ، وفيه يرد على مطاعن الملاحدة فى أسلوب الذكر الحكيم ، مبينا أن الحاجة إلى الحديث وإعجاز القرآن أمس من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية .

أما القاضى عبد الجبار ( ت ٤١٥ هـ ) قاضى قضاه الدولة البويهيه بإيران وأكبر أعلام المعتزلة فى عصره ، فيعرض فى كتابه إعجاز القرآن لرأى أبى هاشم الجبائى فى الفصاحة ، يفضل بها بعض الكلام على بعض معقبا عليه ، ثم يعرض رأيه الخاص فى الوجه الذى يقع به التفاضل فى فصاحة الكلام .

وبعد أن تعرضت للكلام عن الكتب البلاغية قبل ابن سنان ، أفردت مبحثا خاصاً للكلام عن الكتب البلاغية فى عصره ، وأشرت إلى أن ابن سنان الخفاجى قد عاصر علمين من أعلام البلاغة ، هما ابن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣ هـ)، وعبد القاهر الجرجانى ( ت ٤٧١ هـ ) . وانتهيت إلى أن مباحث ابن رشيق تختلف فى مضمونها عن مباحث عبد القاهر ، وأن مباحثهما تختلف فى وضوح عن مباحث ابن سنان ، مما يؤكد أن أحداً منهم لم يطلع على عمل الآخر ، وأن كلا منهم اتجه بعمله إتجاها خاصاً . فكتاب ابن رشيق « العمدة » تكلم عن صناعة الشعر ونقده ، وترجع دقته إلى جمعه للآراء المتقابلة فى البلاغة والنقد . أما عبد القاهر فهو أول من وضع علم المعانى ، وقسم علوم البلاغة إلى المعانى والبيان والبديع ، ونظم علم البيان إلى أمثلته التى تداولتها كتب البلاغة من بعده .

وقصر ابن سنان كتابه على الفصاحة والبلاغة ، وتكلم عن الأصوات والحروف .

وقد جعلت الدراسة بعد ذلك فى خمسة فصول ، تناولت فى أولها تحليل كتاب سر الفصاحة ، موضحاً مواده ، ومصادره ، وانتهيتُ إلى النتائج الآتية :

أولا : أن كتاب « سر الفصاحة » فى مجموعة كتاب فى البلاغة .

ثانياً : أن ابن سنان أراد بحث الفصاحة والبلاغة للتعرف على فصاحة القرآن الكريم .

ثالثاً : أن الفصاحة عنده صفة للفظ دون المعنى ، لأن الكلام أصوات قبل يكون مجرد معان قائمة فى الذهن ، ومن هنا وجب تفصيل القول فى الأصوات وأقسامها ، وصلة الفصاحة بتوافقها وتلاؤمها ، وشروط التلاؤم وخصائصه ، وما يتصل بها من أمور أخرى متعلقة باللفظ .

رابعاً : أنه تكلم عن اللفظ المفرد والمركب ، وجعل لكل منهما صفات ينبغى توافرها ، وبعضها مشترك بينهما .

خامساً : أنه اشترط البيان والوضوح ، ولم يمل إلى الغموض ، ورأينا ذلك واضحا عند حديثه عن فنون المعانى والبديع التى بين دفتى الكتاب .

سادساً : أن الكتاب عالج فنون البلاغة والبديع فى ثنايا حديثه عن سر الفصاحة إذ هى عنده تشمل حسن اللفظ ، وحسن المعنى ، وقد أثر ذلك فى علماء البلاغة الذين جاءوا بعده ، ونخص منهم ضياء الدين بن الأثير .

سابعاً : أن « سر الفصاحة » به عيب كبير فى الأساس الذى قام عليه ، وخلل ظاهر فى ترتيب أبوابه ، وخطأ ملموس فى توزيع موضوعاته على هذه الأبواب .

ويؤخذ على ابن سنان كثرة أحكامه المطلقة ، والتعميم فى قضاياه ، كبنائه الفصاحة فى اللفظة المفردة على التباعد بين مخارج الحروف .

أما الفصل الثانى فقد درست فيه الفصاحة والبلاغة فى الكتاب مصوراً مابينهما من فروق ، ولما ينبغى لفصاحة الكلمة والكلام من شروط ، وأيضاً ما ينبغى للبلاغة من الملاءمة بين الكلام ومقتضى الحال . وانتهيت إلى أن ابن سنان هو بحق أول من فرق فرقا واضحاً بين الفصاحة والبلاغة . وعنه أخذ ذلك ابن الأثير فى « مثله السائر » ومن تلاه من البلاغيين المتأخرين ، الذين جعلوا الحديث فيها مقدمة للكلام فى علوم البلاغة على نحو مايتضح عند الخطيب القزوينى .

وفى الفصل الثالث بحثت الفنون البيانية فى الكتاب ومعالجته لها . وهى التشبيه ، والمجاز والاستعارة ، والكناية . وفيه وقفت عند تقسيم القدماء للتشبيه فبدا أنه نوع من الآلية أو الشكلية ، فالتشبيه يقسم كما تقسم الجملة فى النحو ، ولسنا بحاجة إلى ذلك فى واقع الأمر ، إذا كنا ندرس التشبيه من حيث قيمته البلاغية .

ونرى أن ابن سنان يقسم الكلام المفيد إلى قسمين : حقيقة .. ومجاز : فاللفظ الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد به ماوضع لافادته ، والمجاز هو اللفظ الذى أريد به ما لم يوضع لافادته . ولعل هذه أول مرة يوضح فيها تعريف واضح للحقيقة والمجاز ، وإن كنا نجد له جذوراً عند الجاحظ . ويلاحظ أن ابن سنان لم يتناول الكلام بشىء من التفصيل والشرح وذكر أمثلة للحقيقة والمجاز — على الرغم من تصريحه بذلك — حتى يسهل فهمهما .

ويقسم ابن سنان الكناية إلى قسمين : حسنه . . وقبيحة . وقد تأثر به ابن الأثير فى هذا التقسيم ، وقسمها إلى مايحسن استعماله ، ومالا يحسن . . إلا أن البلاغيين المتأخرين أكثروا من التقسيمات المتداخلة للكناية ، ويخيل إلى أن هدفهم من ذلك هو كثرة الأقسام وتعددها ، وكان حسبهم أن يقولوا أن الكناية قد تكون واضحة أو خفية ، وقد تكون حسنة أو قبيحة بدلا من تلك التقسيمات المنطقية . وأرى أننا نعود إلى تقسيم ابن سنان وابن الأثير فنقسمها إلى حسنة وقبيحة ، أو إلى مايحسن استعماله ومالا يحسن ، ونضع لها بعض القواعد

والأصول ، وبذلك نخلص البلاغة من كثرة التقسيمات، واضطراب المصطلحات وتداخلها واختلاف البلاغيين فيها .

فالكناية لون من ألوان الخيال .ووسيلة من وسائل التعبير ، ولعل ما كتبه ابن الأثير فى كتابيه « الجامع الكبير » والمثل السائر » عن الكناية مايغنى . فقد جعل لهذا الفن روحا ، وبعث فيه حياة ، فإذا بالكناية صور متحركة ، وإذا بالأمثلة توحى بكل بديع عجيب ، وليت المتأخرين استفادوا مما كتبه ابن سنان وابن الأثير عن الكناية ، وتركوا ماكتبه السكاكى والقزوينى وراء ظهورهم .

وقصرت الفصل الرابع على الفنون البديعية والأسلوبية . مبينا ما تتأثر فى الكتاب من المحسنات اللفظية والمعنوية ، والخصائص الأسلوبية ، وقسمت الفنون البديعية إلى قسمين : محسنات لفظية ، ومحسنات معنوية ، وهى المحسنات التى تعرض لها ابن سنان فى كتابه ، أما الخصائص الأسلوبية فهى الإيجاز والاطناب وقد جعلهما ابن سنان من شروط الفصاحة والبلاغة ، وذكر أن الإيجاز يطلب فى مواطن ، ويطلب الاطناب فى مواطن أخرى . ثم نراه يقسم دلالة الألفاظ على المعانى إلى ثلاثة أقسام : أحدها المساواة : وهى أن يكون المعنى مساوياً للفظ

والثانى التذييل : وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلا عنه « وهو الاطناب » .

والثالث الإشارة وهى أن يكون المعنى زائداً على اللفظ ، أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة .

ثم يتكلم عن التقديم والتأخير ، فيرى أن من وضع الألفاظ موضعها ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدى ذلك إلى فساد معناه وإعرابه فى بعض المواضع ، أو سلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين مايقبح فصله فى

لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبههما ، ثم يتعرض هنا للحديث عن المقارب الذى يفسد المعنى ويصرفه عن وجهه .

وفى الفصل الخامس صورت نظرات ابن سنان النقدية فى تضاعيف كتابه وقسمته إلى ثلاثة مباحث : تكلمت فى أولها عن الفرق بين الشعر والنثر وألفاظ الشعر ، ولغة المهندسين والمتكلمين . وفيه يعرف ابن سنان الشعر بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى . وأقل مايقع عليه اسم الشعر بيتان ، لأن التقفية لا تمكن فى أقل منهما ، ولا تصح فى البيت الواحد .

وانتهيت إلى أن ابن سنان يتفق مع القدماء والمحدثين فى تعريف الشعر والشاعر . ثم يفرق بين الشعر والنثر بما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى ، إلى جانب الذوق والحس الذى يقدمه على العروض ، ويفضل النظم على النثر معللا لذلك بعدة أسباب منها : أن النظم لا يعبر عن جد ، وأن الحذق فيه إفراط فى الكذب

وبعد ذلك يذكر ابن سنان أنه يجب ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم . ويتابع فى ذلك ماقاله الجاحظ من أن لكل صناعة ألفاظا قد حصلت لأهلها ، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام والجار أو مخاطبة أهله إلا أن ابن الأثير ينكر عليه ذلك ويبين فساد رأيه .

وعقدت المبحث الثانى من هذا الفصل للحديث عن فواتح القصائد ، وحسن التخلص ، وقد ذكر ابن سنان أن الابتداء فى القصائد يحتاج إلى تحرز حتى لا يستفتح بلفظ محتمل أو كلام يتطير منه . وانتهيت إلى أن القصيدة يجب أن تستفتح بأبيات شيقـــة محببة إلى النفس تشجع القارىء على الاستمرار فى قراءتها . ثم أشرت إلى أنه يجب على الشاعر أن يخرج من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا حتى ينتظم القول انتظاما يتسق به أوله مع آخره ، وحتى تخرج القصيدة كلها كأنها مفرغة افراغا ، لا تناقض فى معانيها ،

ولا وهى فى مبانيها ، ولا تكلف فى نسجها ، تقتضى كل كلمة مابعدها، ويكون مابعدها مفتقرا إليها .

وفرقت بين التخلص والاستطراد . فالاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الاول أو قطع الكلام فيكون المستطرد به آخر كلامه ، والأمران معدومان فى التخلص فإنه لايرجع إلى الأول ، ولا يقع الكلام بل يستمر على مايتخلص إليه .

أما المبحث الثالث والأخير فقد قصرته للحديث عن لزوم مالا يلزم وهو أن يلتزم الشاعر فى شعره أو الناثر فى نثره قبل حرف الروى من البيت أو الفاصلة من النثر ماليس بلازم فى مذهب السجع ، أى أن هذا الالتزام زيادة لاتتطلبها التقفية سواء كانت فى النظم أم فى النثر ، فلو لم توجد لاستقام بدونها ولم يقع عليه ضيم بتركها . وأشرت إلى أن ابن سنان أخذ على كثير من الشعراء ذلك منهم : الحطيئة ، وكثير عزة ، والبحترى ، وابن الرومى ، وأستاذه أبو العلاء فيقول : « وليس يغتفر للشاعر إذا نظم على هذا الفن لاجل ماألزم نفسه مالا يلزمه شىء من عيوب القوافى ، لانه إنما فعل ذلك طوعا واختيارا من غير الجاء ، ولا إكراه ، ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق ، وأقرب السبل ، وليس بنا حاجة إلى التكلف المطرح ، وإن ادعى علينا قائلة أن مشقة نالته وتعبا مر به فى نظمه »[1] . وبذلك نفى ابن سنان مما حكاه المحدثين فى قولهم أنهم يتعبون فى البحث عن تلك المعانى .

* * *

ومن هذا البحث نرى أن ابن سنان عالم يحكم عقله[2] ، وليس ناقدا يحكم ذوقه ، وخبرته بالنصوص ، وتلمسه لأسرار الجمال فيها . وإن كنا لاننفى جهده فى الكتاب ، ولا ننكر فضله فى أنه وضع بكتابه الأساس العلمى لاتجاه

---

(١) سر الفصاحة ص ٢١٢ .

(٢) أنظر تاريخ النقد العربى ( من القرن ٥ — ١٠ الهجرى ) ص ٢٦٣ .

أصحاب البديع ، وأنه ترك لنا أفكاراً فى الفصاحة والأصوات هى أصول ثابتة حتى الآن .

وبعد أن انتهينا من دراستنا لابن سنان البلاغى ، أرجو أن نوفق فى دراسته كشاعر حتى يتم تصوير شخصيته وجهوده فى البلاغة والأدب .

والله الموفق والمعين



# المصادر والمراجع

## أولا : المصادر


١ ـ الآمدى . الموازنة بين أبى تمام والبحترى ط. الجوائب ١٢٨٧ هـ

٢ ـ ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ـ القاهرة ١٢٨٢ هـ .

الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ـ ط . المجمع العلمى العراقى ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م .

٣ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ط . دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

٤ ـ ابن تيمية : الإيمان ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ

٥ ـ ابن جنى : سر صناعة الاعراب ـ الطبعة الأولى ـ ط . الحلبى ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٦ ـ ابن حجة الحموى : خزانة الأدب وغاية الأرب ـ القاهرة ١٢٩١ هـ .

٧ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ الطبعة الأولى ـ ط . نهضة مصر ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .

٨ ـ ابن رشيق القيروانى: العمدة فى صناعة الشعر ونقده ـ الطبعة الأولى ط . أمين هندية .

٩ ـ ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدى ـ ط . أولاد صبيح ـ القاهرة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م.

١٠ — ابن سينا : تلخيص الخطابة ـ ط . وزارة التربيه والتعليم ـ القاهرة.

١١ — ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ ط . بولاق ١٢٩٩ هـ ـ

١٢ — ابن طباطبا العلوى : عيار الشعر . نشر المكتبة التجاربة ـ القاهرة ١٩٥٦ م .

١٣ — ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ـ تحقيق سامى الدهان ـ ط . المعهد الفرنسى للدراسات العربية ـ دمشق ١٣٧٠ هـ . ١٩٥١م.

١٤ — ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . القاهرة ١٣٥٠هـ

١٥ — ابن المعتز : البديع . اشر كراتشقوفسكى ـ ١٩٣٥ .

١٦ — ابن منظور : لسان العرب ـ ط . دار الصاوى ١٣٥٥ هـ .

١٧ — ابن النديم : الفهرست ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ م .

١٨ — ابن وهب : البرهان فى وجود البيان ـ تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى .الطبعة الأولى ـ بغداد ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م.

١٩ — أبو الفرج الأصفهانى : الاغانى ـ ط . دار الكتب المصريه ـ القاهرة .

٢٠ — الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر .

٢١ — الباقلانى : إعجاز القرآن ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط . دار المعارف ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٢٢ — الجاحظ : البيان والتبين . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

الحيوان ـ ط . الحلبى . ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ .

٢٣ — الجرجانى (عبدالقاهر) : دلائل الاعجاز ـ تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى ـ نشر مكتبة القاهرة ـ الطبعة الأولى . ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م.

أسرار البلاغة : تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى . نشر مكتبة القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٢٤ ــ الجرجانى ( على بن عبد العزيز ) : الوساطة بين المتنبى وخصومه - ط . الحلبى . القاهرة .

٢٥ ــ الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن - ط . دار المعارف بمصر - ( ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، حققها وعلق عليها : الأستاذ محمد خلف الله . والدكتور محمد زغلول سلام ) .

٢٦ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى . الطبعة الأولى ط . المطبعة الحسينية المصرية . ١٣٢٤ هـ .

٢٧ ــ السمعانى : الأنساب . ط . ليدن ١٩١٢ م .

٢٤ ــ الصولى : أخبار أبى تمام . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦ هـ - ١٩٢٧ م .

٢٩ ــ قدامة بن جعفر : جواهر الألفاظ . ط . مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٣٢ م .

نقد النثر : المنسوب خطأ لقدامة . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م .

نقد الشعر : تحقيق كمال مصطفى . نشر مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٢ م .

٣٠ ــ القزوينى : الإيضاح فى علوم البلاغة - ط . مطبعة السنة المحمدية - القاهرة .

٣١ ــ المرزبانى : الموشح ( مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر ) . تحقيق على محمد البجاوى . ط . دار نهضة مصر ١٩٦٥ م .

٣٢ ــ ياقوت : معجم الأدباء - ط . دار المأمون . القاهرة ١٩٣٦ م .

# ثانيا : المراجع

٣٣ — إبراهيم أنيس ( دكتور ) : . موسيقى الشعر . ط . مكتبة العرب بالفجالة ـ القاهرة .
الأصوات اللغوية . ط . نهضة مصر ١٩٥٠ م .

٣٤ — أحمد أحمد بدوى ( دكتور ): عبد القاهر الجرجانى . سلسلة أعلام العرب ـ الطبعة الثانية ـ ط. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٢ م .

٣٥ — أحمد مطلوب ( دكتور ) : القزوينى وشروح التلخيص ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة . بغداد ١٩٦٧ م .

٣٦ — برجستراسر : التطور النحوى للغة العربية . القاهرة ١٩٢٩ م .

٣٧ — تمام حسان ( دكتور ) : مناهج البحث فى اللغة . ط ـ الأنجلو المصرية ١٩٥٠ م .

٣٨ — سيد نوفل ( دكتور ) : البلاغة العربية فى دور نشأتها ـ نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٣٩ — شوقى ضيف ( دكتور ) : النقد . ط . دار المعارف ١٩٥٤ م .
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، الطبعة الرابعة دار المعارف ١٩٦٠ م
الفن ومذاهبه فى النثر العربى : الطبعة الثالثة . دار المعارف ١٩٦٠ م
البلاغة تطور وتاريخ : دار المعارف . ١٩٦٥ م

٤٠ — على الجندى ( دكتور ) : البلاغة الفنية . ط نهضة مصر ١٢٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

٤١ — محمد زغلول سلام ( دكتور ) . ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد . ط . مطبعة الرسالة . القاهرة :
تاريخ النقد العربى . ط . دار المعارف ١٩٦٤ م .

٤٢ — محمد مندور ( دكتور ) : النقد المنهجى عند العرب . نشر مكتبة نهضة مصر - ١٩٤٧ م .

٤٣ — محمود السعران (دكتور) : علم اللغة . ط . دار المعارف ١٩٦٢ م .

٤٤ — محمود السمرة (دكتور) : القاضى الجرجانى الأديب الناقد ـ الطبعة الأولى ـ نشر المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت ١٩٦٦ .

# فهرس

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٢٦٣
الرقم الدولى ٩ ـ ٠٧٠ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧